رواية

فاتحة مرشيد

المُلهِمات

المركز الثقافي العربي

فاتحة مرشيد

الملهمات

رواية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

الملهمات

تأليف

فاتحة مرشيد

الطبعة

الأولى، 2011

عدد الصفحات: 208

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-500-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522 303339 ـ 522 307651

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«أحب في كل امرأة كل نساء العالم..
وفائي لهن واحد لا يتجزأ..
وحدها اللامبالاة خيانة».

كاتب ياسين

1

لا أعلم إن كنت تسمعني أم لا . .

على وجهكَ سكينة من تعدّى مرحلة القلق، واستسلم لقدره . . مخلفا ترف القلق لي .

لا يعلم الأطباء، ولا الشيطان نفسه يعلم، إن كنت ستستفيق يوما من غيبوبتك لتستأنف حياة تشبثت بها بكل كيانك .

حياة، لفرط وَلَعك بها لم تقبل أن يشاركك أحد فيها . . حتى ولو كان شريك حياتك .

كثيرا ما تمنيت أن تسمعني، أن أتكلم، أن أفرغ ذاتي، لكنك تحب الأبواب المغلقة بإحكام، تخلق وراءها حياة لا تزعج حياتك، وتستقر في الغموض .

آه! كم يستهويك الغموض . . وكم يقهرني .

كم وددتُ أن أكون شفافة أمامك . . عارية الروح . . وكان العري أشد ما تخشاه .

أمضينا ثلاثين عاما بثيابنا، بأقنعتنا، واحدا جنب الآخر . زوجين مثاليين، لا جدال ولا مشاجرة . .

تمثالين نزيّن بهما وكرنا ونحرس السلالة.

من حسن حظنا، أو من سوئه، لم تكن لدينا مشاكل مادية تعيد العلاقات إلى أبجديتها وتجعل من الكفاح في سبيل لقمة العيش تواطؤا.

تمنيت لو يصهرنا الجوع أو العوز، لو تحتاجني فأظهر شهامتي وارتباطي.

تمنيت لو تدخل علي ككادح عرقه يفسح له الطريق، لو أحكي لك عن مشاجراتي مع الجارات حول تنظيف السلم، عن أولادنا وتفوقهم في الدراسة، عن ثمن الطماطم الذي تضاعف رغم شتاء وافر المطر.

تمنيت لو أطبخ لك رغيفا بسيطا ولذيذا كلمسة يد.. وأنت تلاحظ بشهوة فائض وزني الذي جعل فساتيني تضيق وتلتصق بي.

تمنيت لو تسكب ضيق نفسك على رحابة جسدي، لو تصبّ علي شكواك، وأحسني أجمل ما لديك في هذه الدنيا.

لكن، بيننا خدم وحرس وسائق وطباخ ومربيات للأطفال. بيننا سيارات عددها أكثر من عدد أفراد الأسرة. بيننا مسافات أوسع من قصرنا، وسكرتيرات خاضعات لنظام التجديد. بيننا أصدقاء بل معارف وسهرات وهدايا.

بيننا مسافات أبعد من رحلاتك. وصمت.. صمت.. صمت».

صمتت أمينة ردحا من الزمن وهي تحرث غرفة المصحّة ذهابا وإيابا قبل أن تلقي بجسدها على الأريكة المقابلة لعمر، وتواصل متوجهة إليه بالكلام:

«أكان لا بد أن تدخل في غيبوبة حتى أنفرد بك؟
أكان لا بد أن تهينني ليعترف الجميع بأنني زوجتك؟ فتختفي العشيقات كما بعصا سحرية. وكأن لهن منك الصحّة والفرح ولي منك المرض والحزن.

لا، لست حزينة عليك.. بل حزينة على نفسي.

مجبرة على لعب دور البطلة العاقلة.. على حفظ ماء الوجه ونعي عشيقة ماتت في حادثة سير لتحررك منها وتهديك إياي لا حيا ولا ميتا وأصرّح أمام الجميع:
«المسكينة كانت صديقة حميمة وأنا السبب في وجودها بسيارة زوجي».

مجبرة على حفظ ماء وجه أبناءك واسمك، مجبرة على جعل الإهانة إكليل شهامة على رأسي.

لا، لست حزينة عليك..

ومن فرط حزني على نفسي، قررت أن أطلق صرخة مكتومة منذ أمد بعيد.

لا يهم إن كنت تسمع حقا أو لا تسمع، فلدي على أسوء تقدير خمسون في المائة من الحظ في أن تسمعني وهذه نسبة جيدة جدا.. وأنت في كامل وعيك لم أكن أملك ولو نسبة واحد في المائة.

قررت أن أقول ما فضلتَ ألاّ تعرفه، ربما لأنك ظننت أنك تعرفه أو لربما لا تهمك في شيء معرفته..»

ظهرت ممرضتان لتضعا حدا لمنولوج أمينة. طلبتا منها الانصراف حتى يتسنى لهما تنظيف المريض.

لم تناقش، خرجت شاكرة وهي تقول في صمت:

«موعدنا غدا.. للحديث بقية».

عرّجت على مكتب الطبيب الرئيسي، تسأله للمرة الألف عن حالة زوجها الصحية وهل من أمل في عودته إلى الحياة؟

أجاب في عجز:

- إن للدماغ البشري أسرارا لم يسبرها الطب بعد.

غادرت المصحة وسؤال يعبث بها:

وماذا بعد؟

هل ستظل معلقة هكذا:

لا هي أرملة رجل ميت تستفيد من شفقة الناس ومن طمع البعض منهم؟

ولا هي زوجة رجل حي تمارس حياتها الاجتماعية كزوجة؟

2

بالرغم من نوبة التعب الشديد التي تنتاب الأستاذ ادريس، الملقب بـ«الكاتب الناجح» بين حين وآخر، كانّما لتذكره بالتدهور المستمر لصحته، يرفض أن يخلد إلى الراحة.

«عمر يرتاح ما يكفينا معا للسنوات المقبلة» يفكر مع نفسه.

عاد من زيارة صديقه عمر أكثر حزنا من الحَجَر.
يتخبط في أسئلة لا يملك أحد لها أجوبة:
هل يسمع؟ هل يتألم؟ . . . هل سيستفيق؟
هل يعلم بوفاة كوثر؟
أم أن الصدمة لم تترك له فرصة استيعاب ما حصل؟

جاء في محضر الدرك أن صاحب الشاحنة التي صدمته، وجها لوجه، كان قد فقد السيطرة على الفرامل. حاول أن

يراوغ، لكن عمر الذي يبدو أنه لم ينتبه إلا والشاحنة أمامه لم يجد متسعا من المسافة لتغيير وجهة سيارته. وأن كوثر كانت ميتة قبل حضور الدرك.

هكذا فاجأ القدر عاشق المفاجآت..

لم يكن عمر كاتبا. كان حاضنا للكتب والكُتَّاب. كان صديقهم وناشر أعمالهم. يتذوّق الشعر الذي يكتبه الشعراء، ويعيش القصص التي يخطها القاصون، ويتماهى مع أشخاص الروايات.

ناشر من طينة خاصة، عاشق للورقة، يلمسها كما يلامس امرأة بحنان وشهوة. يمرر أصابعه على انحناءات الحروف، ويختار الأغلفة كما يختار هدية لحبيبة، بالشغف نفسه.. بالحب نفسه.

استلقى الأستاذ ادريس على أريكة بالصالة، أشعل سيجارة وهو يستمع لنقر المطر على النافذة.

«إنه نقر الحياة على قلوب الكسالى تذكرهم بالزمن المارق كسحابة» كما يقول عمر.

لا، لن يستسلم للكسل.. إنه لا يحتاج إلى راحة.

ثم ماذا سينتظر من الراحة؟

لن يستعيد شبابه ولا جنونه ولا شبقه.. فلماذا يرتاح إذن؟

في السابق، كان يخلد للراحة بعد سهرة يَصِل فيها الليل بالنهار. أو ليتهيأ لسهرة جديدة.. يرتاح ليشحن جسده بالطاقة التي تتطلبها نوعية الحياة التي كان يعيشها.

أما الآن ممّ سيستريح؟ والوقت يتسرب كالماء من تحت أبوابه، لينساب عند آخرين.

لا، لا وقت لديه.

نهض متجها نحو مكتبه الذي هجره منذ مدة ليست بالقصيرة.

جلس على كرسيّه وهو يستعيد أولى ملاحظات عمر له:

«تلزمك روح فوضوية، باطنية أكثر، تخرج العمل من تلقائيته وطريقه التقليدي. اذهب بعيدا، حاول أن تغور في المناطق المعتمة.. سيكسبك هذا شهوة غامضة وأسرارا سوداء.»

أخرج من درج المكتب دفترا جديدا وقلما جديدا، فتح الصفحة الأولى، تردد بعض الوقت، عبرت أساريره موجة من التحدي، قبل أن تنساب الحروف كسيل هادر:

«أنا صنيع كل النساء اللواتي عبرن حياتي..

بدأ من التي منحتني الحياة.. إلى التي أيقظت الرجل بداخلي.. والتي فتحت لي باب الإبداع على مصراعيه.. والتي جعلت قلمي يتألق.. والتي كانت ورقة مبسوطة تحت يدي..

فكل كتاب عندي مقرون بامرأة.. كل فرحة عندي مقرونة بامرأة.. وكل انكسار كذلك.

كثيرا ما كتب النقاد عن مساري الأدبي، كمن يكتب عن مسرحية معروضة على الخشبة، جاهلين ما يجري في الكواليس.

قررت الآن، بعد المشهد الأخير، أن أرفع الستارة الخلفية وأهديكم العرض الحقيقي.. عرض الكواليس المفعم بقلق الممثلين وتقلباتهم المزاجية.. بعلاقاتهم السرية وانفعالاتهم الحقيقية التي يوارونها خلف الماكياج والأقنعة قبل أن يرسموا ابتسامة تستحق منكم التصفيق.

مثلكم، لم يكن لي ترف اختيار قدومي إلى هذه الحياة، لكنني اخترت طريقة عيشها، داخل النطاق الضيق الذي تسمح الحياة لنا فيه بالاختيار.

وسط زخم نهمي بالعيش، طبّقت معاييري الخاصة. كثيرا ما أخفقت، أو ربما خلت ذلك لأعود وأتساءل عن معنى الإخفاق.

أليس المهم أن نظل على قيد التطلعات؟

الآن، بعد عُمْرٍ من التدحرج بين السقوط والنهوض. . وبعد أن لم يعد من المتاح لي لا هذا ولا ذاك، لم تعد تهمني معرفة متى أخفقت ومتى أصبت، أصبح المهم هو أنني قد حاولت. . وقد أضحى للإخفاق عندي معنى آخر.

«الحياة لا تساوي شيئا. . لكن لا شيء يساوي الحياة» يقول مالرو.

أدركت هذا باكرا وانغمست في عيشة شديدة الحدة. كنت كمن يركض جريا بأقصى سرعته، لا يسعه الاستمتاع بمنظر الطبيعة المارق من حوله.

ها أنا أتوقف مرغما لأنظر من حولي. . لألتفت إلى الخلف وأمعن النظر في وجوه عاشرتها على إيقاع ركضي المستمر.

عندما تتراءى لنا النهاية أقرب من الأفق، يشرع الحاضر في الانفلات من بين أصابعنا. . والمستقبل يغيب عن الأحلام.

«الحياة حلم. . واليقظة هي التي تقتلنا» تقول فيرجينيا وولف.

ها أنا أستيقظ إذا، لأكتشف أن المصيبة تكمن في صفاء

ذهن يحاول أن يفهم، لأجل الفهم فقط، إذ لم يعد بمقدوره تغيير شيئ، وقد أدرك عمق ما قاله أحدهم:

«إننا لا نتخلى عن عيوبنا بل عيوبنا هي التي تتخلى عنا».

اكتفى الأستاذ إدريس بهذه السطور وقد بدأ العرق ينز من جبينه.

قرر ألا يعيد قراءة ما كتب حتى لا يفكّر في حذف شيء ما. الدفق الأول هو الصادق، دائما، وهو قرر أن يلعب لعبة الصدق في آخر كتاب يدونه..

أحس ثقل كلمة «آخِر كتاب» وهو يتسائل مع نفسه:

«ماذا يمكن لكاتب أن يكتب في الكتاب الأخير؟»

خيل إليه سماع صوت عمر يهمس له:

«اسكب فيه رائحتك وعرقك، فرحك وبكاءك، غضبك من العالم وتصالحك معه، رفضك وتسامحك.. وليكن روحك المتناثرة على ورق أبيض..

وليكن كفنك..

فكلنا أموات لم يستلموا مهامهم بعد».

هذا ما كان يقول له عند بداية أي عمل، مؤمنا بأن على الكاتب أن يكتب في كل مرة كما لو كانت آخر مرة. لكن

شتان بين أن «تفعل كما لو..» وأن «تفعل حقيقة.».

داهمه مَدٌّ من الحزن تطفو فوقه صورة صديقه الممدّد في سكون..

أحس بحاجة عارمة إلى استشارته في مشروعه الجديد.
لقد كان دائما مستشاره وقارئه الأول.

لم يكن عمر بحاجة إلى لجنة لقراءة الأعمال قبل نشرها. كان يقرأ كل الأعمال بنفسه، يوجّه الكتّاب دون أن يكبح حريتهم الإبداعية. لا يستهويه جانب الربح في العمل الأدبي بقدر ما كانت خدمة الأدب هاجسه الأول. لذا كان الكتاب يحترمون آراءه ويأخذون بجدية تعليقاته على كتاباتهم. مقتنعين بأنه لا ينتمي إلى قبيلة الناشرين الذين تنطبق عليهم مقولة مكسيم غوركي:

«الكتاب يشيدون قصورا في اسبانيا، القراء يسكنونها، والناشرون يتقاضون ثمن الكراء.»

فلا أحد منهم يشك في كونه معني بتشييد القصور.

أتكون حادثة صديقه ودخوله في غيبوبة هي التي أوحت إليه بفكرة منح الذكريات حقها في الحياة؟

أم أنه الإنسان، عندما يتقدم به العمر ويقترب من النهاية، يصبح همه أن يُعرف، كما هو، على حقيقته؟

سيستمر ولن تكون مفاجأة عمر بما كتب إلا أعمق.
سيكون سعيدا بالتأكيد، هو الذي يقول دائما:

«الكتابة تُوَرِّط ومن لا يعشق التورط فليدع الكتابة لمن يستحقها».

لكن هل يقبل ناشر أن يورطه كاتب معه؟

3

عادت أمينة إلى البيت منهكة، لتستقبلها حماتها الحاجة مريم بثياب مبتلة وشعر منفوش، سائلة بنبرة غضب صريحة:

- أين اختفيت؟ لقد بحثت عنك طوال الوقت. كيف تسمحين لنفسك بالغياب دون إذن مني؟
- ماذا تريدين؟
- يجب أن تصففين لي شعري سنتأخر عن العرس.
- عرس من؟
- عرس ابني هل نسيت أنه يتزوج الليلة؟
- ومن أنا إذاً؟
- أنت خادمتي الغبية.

تردد أمينة في نفسها: «يا لحظّها إنها مثل ابنها تنعم بالنسيان».

تدخل الخادمة فاطمة مهرولة:

- معذرة سيدتي، لقد استغفلتني ودخلت الحمام وفتحت صنبور الطست وتركت الماء يفيض.

- نبهت عليك مرارا أن لا تتركيها وحدها ولو ثانية. لا شغل لديك بهذا البيت غيرها. أنا في غنى عن مصيبة أخرى. خذيها، غيّري لها ثيابها وصففي لها شعرها.

تغضب الحاجة مريم وتصرخ كطفلة مدللة:

- لا أريد أحدا غيرك. أنت خادمتي.

- أنا متعبة ثم إن فاطمة أكفأ مني.

تخلصت أمينة بصعوبة من حماتها لتنفرد بنفسها في غرفتها.

أحيانا تغبط حماتها على مرض ألزهايمر الذي جعلها تعيش بلا ذاكرة، وتنحدر كل يوم أكثر إلى قعر طفولة اضطرارية. تفكر ببعض الأسى أن عذاب الإنسان يكمن في ذاكرته حين تكون معافاة.. أما وهي مختلة، فالعذاب لمن يعيش معه.

تتمدد فوق السرير، تسرح بعينيها، تتوقف نظرتها عند صورة فوق المنضدة، صورة زفافها: هي وزوجها يتوسطان الصورة فيما تجلس أمها بجوارها وحماتها بجوار ابنها.

كانت حماتها امرأة جميلة، تفيض رقة وحنانا، ترمّلت وهي في عز شبابها وكرست حياتها لتربية وحيدها ورعايته.

أحبتها أمينة منذ البداية وقبلت دون تردد اقتراح زوجها أن تعيش معهما، ولم تندم أبدا على هذا الاختيار.

منذ سبع سنوات خلت بدأت علامات المرض تظهر على الحاجة مريم. شرعت بالنسيان، مرة تنسى اسم إحدى أقاربها، ومرة تنسى مفاتيح سيارتها، ومرة حقيبة يدها.. إلى أن جاء يوم خرجت فيه لقضاء بعض الأغراض، ولم تعد. تاهت عن البيت، ولولا تدخل الشرطة التي عثرت عليها في إحدى الحدائق العمومية، لضاعت الحاجة مريم في شوارع المدينة. يومها، نزل تشخيص الأطباء لداء ألزهايمر كمقصلة على الجميع.

شكّل مرض حماتها سببا إضافيا لغياب زوجها المزمن عن البيت، كانت تلاحظ عذابه كلما سألته أمه عن اسمه وعن هويته.

دخل في البداية في تحد مع ذاكرتها. يردد أمامها بمناسبة وبغير مناسبة أنه ابنها، ويصر على أن تردد بعده: «أنت عمر ابني». لكن مع تقدم المرض أصبحت تنتابها حالة غضب وعنف كلما حاول أحد أن يضغط عليها.

وهكذا بالتدريج نفسه الذي لفظته به ذاكرة أمه انسحب من الحياة الأسرية. وكانت الضربة القاضية يوم اقتحمت عليه للا مريم الصالون، وهو يحتفل بعيد رأس السنة مع جمع غفير من الأصدقاء، عارية كما ولدتها أمها.

كاد يقتل الخادمة التي تشرف على رعايتها، قبل أن

يطردها ويأتي بأخرى ثم أخرى ثم أخرى . . كن يرددن أنه من السهل رعاية عشرة أطفال بدل رعاية الحاجة مريم.

يقول الأطباء إن حالتها ستظل في تدهور مستمر، لتفقد كل مرة قدرة من قدراتها العقلية والجسدية، إلى أن تصبح عاجزة كل العجز، قبل أن تفارق الحياة في المرحلة الثالثة والأخيرة من المرض الذي يودي بصاحبه في غضون ثماني إلى اثنتي عشر سنة بعد الإصابة.

عادت أمينة بتفكيرها إلى حديثها مع الطبيب المسؤول بقسم الإنعاش، الذي قال إن للدماغ أسراره التي لم يسبرها الطب بعد. وإنه لا يستطيع أن يعلم إن كان عمر سيستيقظ من غيبوبته أم لا. لكن عليها ألاّ تفقد الأمل، فهناك حالة رجل بولندي أفاق من غيبوبة استمرت تسعة عشر عاما، ليحيِّر الطب في أمره.

يا لغباء بعض الأطباء!

كيف يظن أنه بهذا يخفف عنها؟

تعود إلى الصورة، لم يبقَ من الأربعة إلا هي:

أم ماتت حقيقة قبل الأوان.

حماة ماتت مجازا وتنتظر حتفها.

زوج ميت مع وقف التنفيذ.

وهي . . تراكم الجثث على نعش الانتظار.

فجأة يلح عليها السؤال: هل يمكن اعتبارها حية؟
هل هذه هي الحياة التي حلمت بها وهي تبتسم لعدسة المصور، وفستان الزفاف الأبيض يدثر عشرين ربيعا هي كل عمرها؟

تحس بحرارة تجتاح جسدها بغتة ثم بغمة في صدرها. يبدأ العرق يتصبب من كل مسامها. تحس بالاختناق، تنهض، تتخفف بعصبية من ثوبها، تفتح النافذة، وتنتظر أمام عيون الليل البارد أن تمر النوبة وهي تلعن سن اليأس. وتفكر مع نفسها:

«أنا لست لا حية ولا ميتة..
أنا مجرد كيس من الهرمونات ترهل مع الزمن.»

4

«طريق الكتابة كطريق الحب ليس بالمعبد أبدا..

تتخلله ألغام من قلق وشك وحيرة وخوف كخوف الأطفال أمام فيلم مرعب.. خوف يشدهم إلى الشاشة أكثر فأكثر».

هكذا فكر الأستاذ إدريس وهو ينتبه إلى أن القلم يرجف بين أنامله.

إنه إحساس يعرفه جيدا لفرط ما خبره. كما في الحب، يشعر أنه مبتدأ أمام كل كتاب جديد كما لو كان يكتب لأول مرة.. لكنه كان يستعين، كغيره من الكتاب، بطقوس خاصة تهّون من حدة هذا الإحساس.. طقوس أصبح مرغما على الاستغناء عنها.

لقد مر عامان، لم يكتب خلالهما كلمة واحدة.. عامان خبر خلالهما كل أنواع الألم الذي كان يحسبه لا يخص إلا سواه.

من طبيعة البشر استبعاد المرض والحوادث والكوارث الطبيعية، إنها لا تحصل إلا للآخرين. .

كان يجلس، ككل واحد منا، أمام شاشة التلفزيون مرتشفا الشاي، متتبعا أخبار الموت والألم، تفصله عنها مسافة قصيّة تجعله يحس بأنه غير معني بها. . إنها أبعد من بيته. . وكأن شيئا غامضا يحصنه، إلى أن أتى يوم أصابه سهم طائش وأزال عنه وهم الحصانة الزائفة. . ليفهم أخيرا أن لا أحد محصّن ضد شيء.

«هناك كتب لا يمكننا كتابتها إلا إذا نحن خبرنا الموت. . أو على الأقل غازلناه. .

وليس الموت واحد».

ردد في سره وهو يواصل ما نوى عليه من بوح.

«قصتي مع الكتابة ممزوجة بقصتي مع الحب، حيث يصعب علي معرفة من منهما سبق الآخر. . أو أدى إليه.

كل ما أذكره هو جلوسي إلى المكتب، بعد أول ممارسة للحب عن حب، لأمسك بالقلم، وأشرع في الكتابة دون سابق قرار أو تفكير. . أكتب. . وأكتب. . ومازالت النشوة تسري في عظامي. .

كانت متعة مضاعفة. . كأن تفريغ قلم يستوجب حتما تفريغَ آخرَ.

كنت كمجذوب خارج عن طوعه، لا يسعه رؤية ما حوله، بل حتى حبيبتي هناء، التي كانت من دقائق بين أحضاني، نسيتُ وجودها لدرجة أنني عندما انتهيت من كتابة القصة انتبهت إلى أنها تبكي في صمت على السرير.

مسكينة هناء، لم تفهم كيف يمكنني الكتابة في لحظة تاريخية كهاته.. كتابة لا علاقة لها بها.. ليتها كانت رسالة عشق وامتنان لامرأة منحتني نفسها عن حب. كانت تنتظر أن أسألها عن إحساسها بالمرة الأولى - إذ كانت المرة الأولى بالنسبة إليها- أما بالنسبة إلي، فقد كانت المرة الأولى التي أمارس فيها الحب مع فتاة أحبها..

فكل المرات السابقة كانت مع مومسات أو عابرات لعواطفي.

غضبت مني هناء، إذن، ورحلت كقطة مجروحة بعد أن مزقت ما استطاعت من أوراق، وقد نجت بأعجوبة أوراق تلك القصة المجرمة التي وجدت طريقها إلى النشر وإلى قلوبكم معشر القراء.

من هنا تعلمت كيف أستعيض عن حب النساء بحبكم.. أحيانا.

لكن حبكم، رغم عظمته، لا يعينني على الكتابة.

ثم بصراحة، اشتقت لهناء. فوجدتني أكتب لها رسائل غرامية ما كنت أحسبني قادرا على صياغتها، شفعت لي عندها وعادت إلي بجسدها الذي يمنحني متعة الحب ومتعة الإبداع.

لم أفهم، ساعتها، سر هذه العلاقة الملتبسة بين فعل الحب وفعل الكتابة، ولا كان قد سبق لي أن قرأت شيئا شبيها. لكن الواقع ملموس.. وقصصي التي كنتم تنتظرونها بشغف شاهدة على ذلك.

يقول فان غوغ: «يجب أن نحس أولا بما نريد التعبير عنه».

عملية الإبداع تبدأ بالإحساس، بالشعور، ربما لهذا السبب لم أكتب شيئا يذكر قبل حبي لهناء.

كان لزاما علي أن أحب، أن تعبُر الكلمات قلبي حتى تنفذ إلى قلوبكم.

كنت أعتقد قبلا أن موهبة الكتابة تُغني عن موهبة الحياة. وقد كنت على خطأ، إذ إن ممارسة الحياة، بكل تعابيرها القصوى، هي التي صقلت موهبتي الأدبية.

قد يحتج بعض الزملاء، وقد ينتصب ضدي بعض النقاد، لكنني لست مسؤولا إلا عن كتاباتي وما يجاورها من أسباب الإلهام وأسباب النزول.

لست بصدد عرض بحث علمي حول غموض الإبداع وأسراره، ولم أكن يوما أميل إلى التنظير. أردت فقط أن أعترف لكم بأن:

«الجمال لا يأتيني أبدا بدون حب»

كما اعترف بول إيلوار في رسالة لحبيبته غالا.

لنعد إلى هناء،

سرعان ما اعتادت هناء على طقس الكتابة الذي يكمل طقس المعاشرة الجنسية. استطعتُ بلباقة أن أجعلها تحس بالفخر كطرف فعال في عملية الإبداع، طرفا أساسيا وضروريا. مما جعلها تجتهد في إنجاح العملية الجنسية حتى أستمتع أكثر وأكتب أغزر.

كانت ذكية وخلاقة، حيث بدأت تفاجئني كل مرة بطقس جديد موظفة كل الإكسسوارات: فمرة أجدها وقد تقمصت شخصية راقصة شرقية بحللها وفستانها اللصيق، ومرة تتحول إلى مومس بثياب داخلية شفافة وأحمر شفاه قان، ومرة ترتدي وزرة بيضاء لتعتني بي كممرضتي الخاصة، وأخرى تفاجئني بطقوس جيشا يابانية.. وغيرها.

أصبحت إلهة الفن التي تحرك بداخلي مكامن الإبداع.. أصبحت مروِّضة القلَمَيْن بامتياز.

حاجتي المتزايدة لهناء ولدت لدي الخوف من فقدانها، مما جعلني أقدم على الزواج منها..

وكانت هذه أولى تضحياتي من أجل الكتابة.

خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجنا، كانت هناء مثالا للملهمة، تجتهد باستمرار في خلق الدهشة وابتكار شخصيات جديدة. إلا أن هذا يتطلب مجهودا كبيرا، وقد بدأت تتعب بعد أن استنفدت كل الشخصيات.

كما أصبحت تتضايق من تفاقم عدد المعجبات.

أدركتْ، وإن كانت تؤمن بأن «وراء كل رجل عظيم امرأة» أن أمامه نساء كثيرات مستعدات للقيام بالتضحيات نفسها، حتى يستقيم لهن القلم.. وتستقيم له الكتابة.

لا أخفيكم، أنني أنا بدوري، بعد ثلاث سنوات من التنقل بين السرير ذاته والطاولة نفسها، بدأ فيروس الروتين يتسرب إلى جسدي وإلى أوراقي..

لست أنانيا.. لكن التكرار عدو الإبداع.

والضجر بداية النهاية.. إنه «ألم الوقت» الذي يجثم فوق صدورنا بثقله ليسلب الجسد خفته ورعونته.

كما أنكم تنتظرون مني الجديد دوما..

الشهرة لا ترحم، لا بد من أداء ضريبتها من دمك الأحمر والأبيض أيضا..»

تقدمت الخادمة فطومة ببطء، يفرضه وزنها الذي يجثم على ركبتيها، بصينية القهوة. كطفل ضبطته أمه في وضع

مشين أقفل الدفتر بانفعال، ثم ضحك في نفسه من تصرفه قائلا بأعلى صوته:

- جئت في وقتك رأسي تكاد تنفجر.
- لماذا لم تقل لي كنت جئتك بحبة أسبرين؟
- ظننته وجعا عابرا، لا بأس، أشرب القهوة وأذهب لزيارة عمر.
- كيف حاله الآن؟
- مازال في غيبوبة.
- مسكينة السيدة أمينة.. هي في وضع لا تحسد عليه.

أتعرف أنت يا السي ادريس المرأة التي كانت معه في السيارة ساعة الحادث؟

- دعينا من النميمة أيتها العجوز، اذكروا أمواتكم بخير.
- وأحياءكم أيضا.. أليس كذلك؟ ما علينا!

هكذا أقفلت فطومة الموضوع.

هي التي علمتها الحياة إقفال الأبواب قبل فتحها.

5

استيقظت أمينة لتجد صباح في انتظارها بقاعة الجلوس.

صباح صديقة حميمة منذ أيام الدراسة الثانوية، تكاد تكون الصديقة الوحيدة التي احتفظت بها أمينة بعد أن علمت أن بعض الصديقات، أو من كانت تكن لهن الصداقة، لم يترددن في الدخول مع زوجها في مغامرات عاطفية.

تعمل صباح مخرجة للتلفزيون على حسابها الخاص، تملك شركة للإنتاج وتعتبر من أهم مخرجي الأفلام الوثائقية.

امرأة ذكية، ذات شخصية قوية، درست الإخراج بفرنسا وتشبعت بالثقافة الغربية، اختارت عن قناعة ألاّ ترتبط بعقد زواج، وأن تعيش حياتها العاطفية والجنسية بكل حرية.

عادت لتوها من جنوب المغرب بعد أن أنجزت سلسلة وثائقية حول المرأة الصحراوية لحساب قناة فرنسية.

علمت، وهي في طريق العودة، بخبر حادث عمر فقدمت مباشرة لزيارة صديقتها وهي بعد محملة بحقائبها.

شكل أمينة يدل على أنها لم تنم الليل، تقدمت نحوها صباح لتضمها في حنان قائلة:

- آلمني جدا ما حصل، كيف حالك حبيبتي؟ وكيف هو حال عمر الآن؟

- لا تسأليني عنه، اسأليني عن نفسي فقط. تعالي نتناول طعام الفطور بالحديقة إنني أشعر باختناق.

تجلس الحاجة مريم، في بهو الحديقة، بصحبة فاطمة التي تطعمها كطفل صغير. ما إن تقدمتا نحوهما حتى سألت في ذعر:

- من أنتما وعمن تسألان؟

ألقت صباح على أمينة نظرة تقول في شفقة:

«مسكينة حماتك لا تدري ما يجري بهذا العالم».

وقبل أن تنبس أمينة بكلمة لتهدئة حماتها تدخلت فاطمة بلطف وقالت للحماة:

- تعالي نبتعد عنهما.. سنكمل الإفطار أمام شاشة التلفزيون.

- أحسن، فوجهاهما لا يبعثان على الارتياح.

انصرفت الحاجة مريم وفاطمة لتأخذ مكانهما أمينة وصباح مع ما خزنتاه من شوق.

بادرت أمينة بالسؤال:

- كيف كانت رحلتك؟

- أخبريني أنت أولا عما قاسيته في غيابي.
- لا، أرجوك، لا أريد أن أجتر أحداث المهانة.
- حسنا، كما تريدين، لكنني أود أن تأخذيني لزيارة عمر.
- غدا إذا أردت. أنا متعبة جدا وأنت لم تستريحي بعد من سفرك..

حدثيني عن ربورتاجاتك حول المرأة الصحراوية. أتراها تعاني مثلي؟

- نجحتُ في تصوير أشياء رائعة.
- مثل ماذا؟
- أنجزت فيلماً وثائقيا حول احتفال الصحراويات بطلاقهن من أزواجهن. تصوري أن المرأة الصحراوية تحتفل بطلاقها كما تحتفل بزواجها. وكلما ارتفع عدد المرات التي طلقت فيها كلما زادت قيمتها في سوق الزواج. ظاهرة لا توجد في أي بلد من بلدان العالم.
- كيف لم أسمع بهذا من قبل؟ كان الأجدر بي أن أتزوج في مدينة العيون.

ابتسمتا معا، قبل أن تواصل صباح:

- الأجمل، أنه كثيرا ما يتقدم معجب لخطبة المطلقة أثناء هذا الحفل.
- عظيم تحررهن من فكرة قدسية العلاقة الزوجية.
- معك حق، أحيانا أتساءل هل الزواج هو سبب موت

الحب أم أن الفكرة الجادة حد الصرامة التي نتناول بها العلاقة الزوجية هي ما يجعل الحب يختنق؟

قالت صباح في تأمل قبل أن تضيف:

- ثم ما أعجبني كذلك هو تحررهن من مقاييس يحاول الغرب أن يفرضها علينا.

- أية مقاييس؟

- مقاييس الجمال، أعني، النحافة المفرطة.. فالصحراوية كلما ازداد وزنها ازداد مهرها. وهن يجتهدن في الوصول إلى السمنة بتناول بعض الأدوية، وبطرق تقليدية أخرى.

- كأنك تتحدثين عن عالم آخر. وهل استمعت إلى الشعر الحساني؟

- نعم، حضرت جلسات الشعر الحساني والصحراويات يتغزلن في الرجل بكل حرية. تمنيت لو كنت حاضرة معي. لكنني على العموم قد صورت كنوزا من قراءات شعرية وحوارات مع نساء رائعات، وهن يعرضن أنوثتهن الباذخة بثقة كبيرة.

أضافت أمينة وهي تصب عصير البرتقال في كوب صباح:

- غريب كيف أننا نجهل الكثير عن النساء ببلدنا. أتساءل كيف تتجرأ بعض البرجوازيات اللواتي راكمن من

المال والضجر ما يكفي ليترأسن جمعيات تتحدث باسم المرأة المغربية. لكن عن أي امرأة يتحدثن؟

- معك حق، ليست هناك امرأة مغربية بل نساء مختلفات باختلاف المناطق والثقافات. هؤلاء لايعرفن من النساء «الشعبيات» كما يلقبنهن، إلا الخادمات اللواتي يشتغلن ببيوتهن. يحطن علما بأصغر أزقة باريس ولندن فيما يختزلن جغرافية المغرب في بعض الأماكن الفاخرة. وتتحدثن باسم المرأة المغربية.. يا لوقاحتهن!

سألت أمينة مازحة:

- ترى في أية خانة يصنفن المغربيات مثلك؟ أعني، اللواتي أمسكن بقدرهن وقررن عدم الارتباط برجل واحد وجعل العمل جواز سفرهن نحو المجهول والممنوع والمدهش؟

لم تجب صباح عن السؤال وإنما أردفت في تأمل:

- أنا فخورة بنسائنا وبتعددهن.

ثم أضافت:

- تعرفين ما هي غلطة عمرك يا أمينة؟

- ما هي؟

- قرارك التخلي عن عملك، وسجن نفسك في البيت، تنتظرين عودة عمر وتدوّنين في السرّ، وبصمت، كل مغامراته..

علاقتك مع صبري كانت الشيء الوحيد الناتج عن جوهرك الذي غلفته الرتابة.. معه فقط كنت أنت.

استدركت أمينة حاسمة وهي تضع قطعة من السكر في فنجانها:

- قلت لن نتحدث عني. كيف حال سيباستيان؟

- بخير، ينتظرني الليلة كعادته بقارورة شمبانيا وشموع وورود حمراء.

- إنه إنسان رائع، لماذا لا ترتبطين به يا صباح؟

- لا، هكذا أفضل هو يحتفظ ببيته وأنا ببيتي ونتقاسم اللحظات الرائعة فقط. لا أريد أن أقاسم أحدا اليومي، ولا أحب الحديث عن فواتير الماء والكهرباء وثمن البصل.

صمتت قليلا، ثم اردفت كما لتعزز وجهة نظرها:

- تعلمين أن أصل كلمة ارتباط هي ربط. وهناك مثل صوفي يقول:

«اربط عصفورين مع بعض، يعجزان عن الطيران، مع أن عدد الأجنحة قد أصبح مضاعفا».

تمتمت أمينة:

- ليس ثمة ما يضاف.

وقد بدا عليها بعض الشرود.

انتبهت صباح إلى أن أمينة قد أخذها تفكيرها بعيدا، فسألت:

- فيمَ سرحت؟

قالت أمينة بعد تردد:

- لدي عندك طلب.

- أطلبي ما تريدين.

- أريدك أن تصحبيني إلى بيت المرحومة كوثر لأقدم العزاء.

صمتت صباح لحظة تحاول أن تستوعب ما سمعته، قبل أن تسأل:

- تعنين كوثر عشيقة زوجك التي توفيت أثناء الحادث؟

- نعم.

- هل جننت؟

- لا ليس بعد، سوف أشرح لك.. لا، لن أشرح شيئا لأنني لا أظنك قادرة على فهم مثل هذه الأمور.

فكرت صباح بأن لأمينة تصرفات يصعب عليها استيعابها.. لكن الصداقة الحقيقية تتطلب أحيانا التواطؤ من غير فهم.

6

مطر عنيف ينقر زجاج النوافذ.

يقف الأستاذ إدريس خلف نافذة غرفة نومه، مرتشفا كأسا من النبيذ، متأملا رقصة المطر على الرصيف، مرددا في نفسه أبياتا لبول إلوار:

الجبين على زجاج النافذة
كما هو حال الساهرين التعساء
أفتش عنك عبر الانتظار
عبر نفسي
ولا أعود أعرف لشدة ما أحبك
أيّنا الغائب.

التفت خلفه ليجد سريرا في عزلة يتثاءب، مسندا رأسه إلى حائط تطل منه صورة هناء.. صورة تكاد تكون بحجم السرير.

سرح طويلا في ملامح وجهها، الذي يعيده إلى سكينة عهد الصبا والجمال.

كم كان ظالما لها وكم ظلمتهما الكتابة معا!

يتساءل مع نفسه: كيف كانت ستستقبل هذه الاعترافات؟ هي التي عاشت صفحاتها المُرّة.. بينما كان هو يحصد النجاحات.

تجرعت المُر من أجل أن يبدع، ولكن هل ستقبل بأن يعرف الجميع تضحياتها؟

وهل يمكن اعتبار هذا النوع من التضحيات بطولة؟

أم أن الحب، ابن الكلب هذا، الذي يجعلك تهوي إلى قعر الذل، لا يستحق منك أن تذهب بعيدا إلى هذا الحد؟

وهل ستغفر له هذه الضربة القاضية؟ هي التي أصبحت أكثر حضورا منذ رحيلها. أم أنها ستكون السبب في تخليها عنه في السن التي أصبحت حاجته إلى ذكراها كحاجة طفل إلى أمه؟

توجه نحو صورتها التي ما برحت تزداد اقترابا، وكأنها تصغي إليه، وهو يقول بصوت مسموع:

«أعلم كم أهملتُ هذا البيت لفرط شغفي بما يجري خارجه..

كنت أعاني من عدم الرضى المزمن، وكانت تلك الطريقة الوحيدة التي أعرفها لأستمر في العيش..

ما تعمدت يوما إيلامك ولا كانت إساءتي لك عن قصد.. لكننا لا نُؤلم إلا من نحب».

ماتت هناء منذ أربع سنوات، بعد صراع دام ستة أشهر، مع سرطان الرحم. هي التي حبلت ست مرات وأجهضت في كل مرة.

كان رحمها لا يقبل الأجنة أكثر من خمسة أشهر على الأكثر. تمضيها ممدّدة على السرير بين قلق وأمل، تتبع بالحرف تعليمات الطبيب، ليلفظ جسدها الجنين خارجه، وتمضي شهورا بعدها في حالة إحباط أسود.

بعد المرة السادسة، تخلت عن فكرة الإنجاب تماما، وبدل أن تفكر في تبني طفل، كما أشار عليها زوجها.. تبنته هو.

كانت تعز عليه استماتتها في معاودة الكرة بعد كل فشل.. وحرصها على كتابة رسالة لكل جنين يسقط منها ودفنها معه.

هي التي تخلت عن حلمها في أن تكون كاتبة، لتعيش هذا الحلم عبر نجاحات زوجها. لم تكن تتخيل بأن إنجاب الكتب يغني صاحبه عن إنجاب الأطفال.

كانت تقول له، بعد أن استقر المرض الخبيث في أحشائها:

«إن رحمي يعاقب نفسه لأنه لم يفلح في إعطائك ذرية تستمر بعدك».

كان ألمها صامتا، تحملته بكبرياء عظيم.

وعندما لم يعد بإمكانها الاعتناء لوحدها بشؤون البيت، كما كانت تحب أن تفعل، طلبت من فطومة، الخادمة التي كانت تستدعيها عند الحاجة فقط أن تستقر عندهما. جهزت لها غرفة خاصة، وعلّمتها كل ما يتعلق برغبات زوجها وعاداته. حتى تطمئن على راحته بعد رحيلها.

فطومة امرأة تفوق الستين من عمرها، تتميز بحنان أمومي تنثره من حولها بكرم كبير. يجعلك تشعر إزاءها بعلاقة قرابة كما لو كانت فردا من أفراد أسرتك. تقاذفتها المصائب قبل أن تتركها وحيدة في هذه الدنيا.

لولاها لما استطاع الأستاذ إدريس أن يواجه فترة مرض زوجته.. ولا احتضارها البطيء.

تولدت بينه وبينها علاقة صداقة مكتومة صقلتها ظروف السقم.

جهزت فطومة طاولة العشاء ونادت عليه.

منذ فترة، طلب منها أن تشاركه وجبات الطعام، فلم يعد يحتمل الأكل لوحده.

لاحظت لمسة الحزن على محياه، سألت:

- كيف هو حال السي عمر اليوم؟

- حالته مؤلمة. هو ممدد لا يشعر بما يجري حوله.
- أريدك أن تأخذني لزيارته، فالأعمار بيد الله. من كان يصدِّق أنه سيلقى على سرير بين الحياة والموت، مسكين السي عمر.. كم تألم لمرضك.

تذكر معاناته الخاصة مع المرض، ومساندة عمر له.
لم يفارقه خلال فترة العلاج ولم يبخل عليه بشيء. كم مرة قضى الليلة معه في المصحة أو في بيته وكم مرة اعتذر لكوثر، في عز تعلقه بها، ليظل بجانبه.
صداقتهما من النوع النادر.. تفوق ارتباط الأخوة.

مر العشاء في جو من الصمت الحزين، كفيل بسدّ شهية ضبع.
كسرته فطومة قائلة:
- أريد أن أحدثك يا السّي ادريس في أمر يخصني.
نظر إليها مشجعا:
- خيرا، تفضلي.
- أنت تعلم أن أمنيتي الوحيدة في هذه الدنيا هي زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأداء فريضة الحج. لقد تجمع لدي ما يكفي من النقود وأكثر، بفضل كرمك، ونويت إن شاء الله أن أتوكل هذه السنة.
صمت الأستاذ إدريس بعض الوقت، وكأن الأمر يتطلب تفكيرا، قبل أن يقول:

- تعلمين أنه لا يمكنني الاستغناء عنك، وتعلمين كذلك أنه لا يمكنني حرمانك من تحقيق أمنيتك. على بركة الله جهزي أوراقك ولترافقك السلامة.

- هذا ظني فيك يا ابن الأصول. على أي لا تشغل بالك لقد اتفقت مع صديقة عزيزة للقيام بخدمتك ريثما أعود بالسلامة.

- هذا خبر رائع.

نهضت فطومة وهي تتمتم بدعوات طالبة له الهداية.

ضحك قائلا:

- يا لك من عجوز بلهاء.. إن الله يهدي من يشاء.

تمنت له ليلة سعيدة وانصرفت تاركة إياه مع نفسه. لقد علّمتها هناء أن تحترم عزلته ما استطاعت.

دخّن الأستاذ ادريس سيجارة في الصالون قبل أن يدخل غرفة نومه، ويستلقي تحت صورة هناء.

يكاد يسمعها توشوش له بصوت ناعس:

- ما بك حبيبي؟

- لا شيء حبيبتي، عودي إلى نومك، أحبك وأنت نائمة.

- هل تحس بألم ما؟

- لا كنت فقط أرتب بعض السطور في دماغي.

- كفاك سطورا وتعال لتستريح حبيبي، إنك متعب.

فكر بأنه حقا متعب.. متعب من الحياة، وتساءل مع نفسه:

«هل يمكن لمحب الحياة أن يتعب منها؟»

وأجاب بيقين من اكتسب خبرة في الموضوع:

«نعم، تماما كما نتعب من حب.»

حاول أن يسترخي علّه يجد للنوم سبيلا، لكن اجتراره لمنظر عمر بالمصحة طرد النوم عن جفونه. نهض إلى المكتب، أمسك بالقلم وكتب بخط عريض على الصفحة الثانية من الغلاف، في شبه استهلال، مقولة لونستون تشرشل:

«سيسامحني التاريخ لأنني أنوي كتابته».

7

تقدمت إحدى الممرضات نحو أمينة حال وصولها إلى المصحة، قائلة:

- سيدتي، إن الطبيب الرئيسي يرغب في الحديث إليك.

هرولت إلى مكتبه دون أن تستفسر الممرضة عن الأمر، والقلق يعبث بها.

استقبلها بابتسامة وقد لاحظ قلقها، موضحا بصوت هادئ:

- لا شيء يستوجب القلق سيدتي لقد أردت فقط أن أشكرك على مساعدتك لنا وعلى ما تقومين به إزاء زوجك.

لم تفهم ما يعنيه، سألت بإلحاح:

- دكتور ما الأمر؟

- أود أن أقول: إنني مثلك لا أعلم إن كان يسمع أم لا، لكن الدراسات العلمية أثبتت أن الكلام مع مريض في

حالة غيبوبة لا يمكن إلا أن يكون إيجابيا، وقد يكون نافعا يوم يخرج من غيبوبته.

أنا أطلب دائما من طاقم التمريض القيام بهذا، لكن ضغط العمل بقسم الإنعاش لا يترك لهم الوقت للحديث مع المرضى.

لهذا وددت أن أشكرك على تعاونك معنا. أعلم أنه ليس من السهل الاستمرار في الحديث حين يكون من طرف واحد. لكن، لا بأس، اعتبريه تكملة للعلاج.

ارتبكت أمينة وقد فاجأها الطبيب بشكره لها وهي لم تكن تنوي من كلامها مع زوجها أن تساعد في علاجه، بقدر ما فكرت في علاجها هي من صمت أجبرها عليه.

كيف تشرح للطبيب أنها فرصتها الوحيدة في الكلام معه.. كلام تفرضه عليه.. كلام يثأر لها من سنوات الصمت.

قالت وهي تتوجه نحو باب المكتب:

- ليته يجدي نفعا.

ما إن بلغت غرفة عمر حتى جلست كعادتها على الأريكة قبالته وشرعت قائلة:

«قال لي الطبيب وهو يثني علي إن كلامي معك طرف مهم في العلاج.

يا للمفارقة! يبدو أنني عاجزة عن إيلامك.
دعني إذاً أذكرك بما مضى.. علّ الذكرى تنفعك.

كان أول لقاء لنا بالمدرج بكلية الآداب، ونحن في سنتنا الدراسية الأولى. كنت جالسا في الصف أمامي، تلتفت وراءك باستمرار، وتنظر إلي بإلحاح نظرات منعتني من التركيز على الدرس. كان درسا حول امرئ القيس. أذكر جيدا كيف كان الأستاذ المحاضر ينشد:
«أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمر القلب يفعل»
وأنت تنظر إلي كأنك تتوجه إلي بهذا البيت.
يومها دخلت قلبي عن طريق الشعر.

ما إن خرجنا من المدرج حتى تقدمت نحوي بابتسامة قائلا:
- آنسة، هل يمكن أن أطلب منك كراستك لأنني لم أدون شيئا من درس اليوم.. كان علي أن أختار بين أن أركز عليك أو على الأستاذ المحاضر وطبعا الاختيار كان سهلا.
أعجبتني خفة دمك ولم أكن بدوري قد كتبت شيئا يذكر. أجبتك في خجل:
- سجلت فقط رؤوس الأقلام.
قلت بثقة:
- المهم في الحياة هي رؤوس الأقلام.. أما الباقي فهي تفاصيل يمكن أن نضيفها بطريقتنا.

لم أكن أعلم حينها أنك فعلا ستحتفظ من علاقتنا برؤوس الأقلام.. وتؤثث حياتك بتفاصيلك الخاصة.
غريب كم أحببتك!

أتذكر أول مرة دعوتني فيها إلى السينما؟
كان يوما دافئا. قلتَ:
- نعرج على بيتي لأعطيك كتابا بالغ الأهمية.
لم أمانع. كنت تعلم أن والدتك خارج البيت. أدخلتني غرفتك وأنا أكاد أنهار من الخوف. وجودي ببيت غريب مع شاب لوحدنا كان شيئا لذيذا حد الذعر.
أمام مكتبتك قبلت يديّ وقبل أن أستشف نواياك وضعت شفتيك على شفتيّ. أحسست ضغطهما..و..أغمي علي.

كانت أول مرة يقبلني شاب.. وكانت آخر مرة يغمى علي من جراء قبلة.

جئت بقارورة عطر والدتك، جعلتني أستنشقها، نهضت مذعورة وأنا أردد:
- لابد أن أغادر.. لا بد أن أغادر..
ذهبنا بعد ذلك إلى السينما وأنت مزهوٌّ بانفعالي.

كنت سعيدة بوجودك بجواري تلفنا العتمة بحنان، وقد اخترت لنا مكانا منزويا في الصف الخلفي.

لم نشاهد شيئا من الفيلم . . كنا أبطال فيلم آخر تجري أحداثه بقاعة العرض خارج الشاشة .

لمست يدي . . لم أمانع .

قبلتني . . لم أمانع .

ارتفعت حرارة أجسامنا وأنفاسنا بدأت تتقطع .

ولحظة، دسست يدك تحت تنورتي الزرقاء . . ثم تحت تباني . كاد يغمى علي من جديد وقد خجلت من السيل الذي بلل ما بين فخذيّ .

بكل تلقائية، أمسكتَ يدي ووضعتها فوق سحابة سروالك، شلت يدي، لم أعرف ماذا أفعل بها . . ماذا أفعل بك .

كنت مدينة للعتمة .

أدركتَ أنني اللحظة لن أستطيع غير الاستسلام .

قبلت شفتي . . وانحدرت إلى أذني . . ثم عنقي . . ثم . . أحسستُ الموت وشيكا . . و . . وجاء الموت . .

ولدتُ بعده مفعمة بالسعادة حد البكاء .

بكيت طويلا في العتمة، وأنت تسترجع أنفاسك، والشاشة تبث فيلما لا يعنينا» .

توقفت أمينة برهة وكأن عليها أن تسترجع أنفاسها، قبل أن تستأنف :

«هل مازلت تذكر؟

كان كل الطلبة بالجامعة على علم بقصة حبنا. حتى الأساتذة لقبونا «بقيس وليلى».

أنهينا الدراسة وتزوجنا وحققنا حلمك في تأسيس دار للنشر.

أما أنا فقد تخلّيت عن كل حلم. لم يكن لي حلم غير إسعادك.

كافحنا معا ونجح المشروع وأصبحت منشورات «مرايا» مرآة للثقافة بالمغرب. وشيئا فشيئا أصبحت لدينا مطبعة خاصة وشركة للتوزيع، تتعامل مع جل البلدان العربية.

بعد هذا قررنا أن ننجب أطفالا. حبلت، وجاء قيس، كانت فرحتنا به لا يسعها الكون، لولا خروجه للحياة بتشوه خلقي في القلب.

كنت تقول: «أخذ من قيس هشاشة قلبه».

لكنها كانت هشاشة عضوية جعلت منه طفلا نحيفا، أزرق البشرة والشفاه، يمرض كثيرا، ويتطلب عناية خاصة ومستمرة.

بالرغم من مساعدة والدتك لي قررنا أن أتفرغ له، فوجودي في الشغل لم يعد ضروريا.

تفرغت لقيس إذن، بين طبيب الأطفال واختصاصي القلب والشرايين وطبيب الإنعاش كلما داهمته نوبة قلبية.

وقبل أن يكمل قيس سنته الثانية حبلت بخولة. كان حملا طارئا عشناه على أعصابنا. وجاءت خولة، والحمد لله، في صحة جيدة.

مرت ثلاث سنوات وحالة قيس الصحية تتدهور شهرا وراء شهر. ونحن نبتعد عن بعضنا شهرا وراء شهر. لم نعد نتقاسم الحديث حول شغلك. أصبح كلامنا يدور حول صحة قيس وشغب خولة.

ربما لاحظتُ أنك أصبحت غامضا، لكن لم يدع لي الأطفال ترف السؤال.

وذات ليلة كالحة السواد، في هذه المصحة بالذات، غادرنا قيس، من جراء نوبة قلبية، قبل موعد العملية الجراحية المبرمجة بشهر واحد.. ومعه قلوبنا.»

صمتت أمينة وقد غزت الدموع عينيها.

تساءلت إن كان قادرا على الحزن في وضعه.

وخرجت مهرولة أبعد ما يمكن من غرفة الإنعاش هاته.

8

شعر الأستاذ إدريس ببعض الرعب وهو يلاحظ بأن ذاكرته بدأت تخونه بين الفينة والأخرى.

صارت تنفلت من بين أنامله بعض الكلمات. كما أصبح في حاجة لإعادة قراءة ما خطه من قبل حتى يواصل الكتابة مع أنه كان، في السابق، كلما كتب شيئا ينحفر في الذاكرة.

أن يخونه الجسد فذاك شيء محتمل، لكن أن يخونه العقل فهذا ما لا يمكنه احتماله.

أهو مفعول الأدوية الكيميائية التي تناولها أم أنه التطور الطبيعي للأشياء؟

فكر مع نفسه أن الكتابة، حاليا، أصبحت أمرا استعجاليا، وانهمك في سكب ذاكرته على أوراقه:

«من الرائع أن لكل مبدع ملهمة تفتح له خزائن السحر..

قد تكون امرأة يعشقها، وقد تكون فكرة تترك بصمات

على صفحات أعماله. وبالتالي هي تستحق منه ومنا قدرا من الاعتبار.

من المبدعين من اقتصر على ملهمة واحدة طوال حياته، كقيس مجنون ليلى وأراغون مجنون إلسا.. هؤلاء من يؤمنون بالحب الوحيد.

ومنهم من احتاج لملهمات عديدات.. وأنا مثال حي على ذلك.

كما أن هناك من النساء من ألهمت مبدعين متعددين من ميادين مختلفة. أذكر منهن: غلا الروسية التي أطلق عليها أندري بروتون اسم «المرأة الخالدة». فقد ألهمت الشاعر الفرنسي بول إيلوار الذي تزوجته قبل أن تتخلى عنه لتتزوج من سلفادور دالي. ويذكر أنها ألهمت فنانين وكتاب في الحركة السريالية من أمثال ماكس إرنست وكريفيل والشاعر روني شار الذي كتب فيها قصائد رائعة.

لن أجازف بشرح أسرار الإلهام لأنه مثل الحب عصي على الشرح.. سأكتفي بإعطاء مثال بسيط للتوضيح:

لابد أنك أيها القارئ العزيز، قد صادفت في حياتك أشخاصا، نساء كانوا أم رجالا، من نوع الذين مجرد وجودهم بجوارك، يحجب عنك الشمس.

تصبح في حضرتهم غبيا وتافها، تبحث عن كلماتك فلا

تجدها وأفكارك تتبخر. هؤلاء يسربون من حولهم ذبذبات سلبية تمتص ذبذباتك الإيجابية.

كما أنك بالتأكيد، قد صادفت أناسا تحس وأنت بصحبتهم أنك أذكى وقادر على استشفاف الجمال. وكأن إحساسك بالأشياء وبالعالم من حولك أصبح أكثر رهافة.. وكأنهم زخات مطرية تسقي بذورك النائمة وتحولها إلى حقول خصبة. هؤلاء يسربون من حولهم ذبذبات إيجابية.. كيمياء غامضة تجعلك وأنت في حضرتهم: واحد زائد واحد، تساويان ثلاثة عوض اثنين.

وهذا الجزء الثالث الإضافي هو ما نبحث عنه كمبدعين في علاقاتنا بالآخرين.

ففي كل علاقة بين اثنين، وإن كانت تبدو متوازنة، هناك من يعطي أكثر وهناك من يأخذ أكثر.

هناك من تكبُر به وهناك من يكبر بك.

وبما أن الإبداع عطاء بالمعنى السامي للكلمة، فإن المبدع مهما كان أو بدا أنانيا، فهو في أوج أنانيته لا يسعه إلا العطاء..

العطاء من ذرات طينه المتفتت من فرط الانفعال.

وبما أنني، كمبدع، في حالة بحث مستمر عن إحساس جديد، انفعال جديد وفكرة جديدة. فأنا حتما في حالة بحث مستمر عن ملهمة جديدة.

إلا أن علاقتي بملهماتي كانت تتخذ الحب أرضية لها . .
ومن هنا كانت ملهماتي حبيباتي وحبيباتي ملهماتي .

لست أنت، عزيزي القارئ، من سيلومني على ذلك .
وأنت صاحب السؤال القاتل : «ما هو الكتاب المقبل؟» وكأن الكتب متراصة في دماغي تنتظر أن أعطيها الإذن بالظهور .
ليتكم تعلمون أنه في كل بناء لكتاب تهديم لكيان الكاتب .
ليتكم تدركون كل ما يتطلبه كتاب من موت . . نحن نموت قليلا مع كل إبداع . وهاجسنا المدمر هو الكتاب المقبل . وهل سنستطيع ولادة جديدة؟

فأناشدكم، لا تسألوا كاتبا، أثناء توقيعه لكتاب جديد :
«متى الكتاب المقبل؟»

يقول عمر، صديقي وناشر أعمالي، الذي يكتسي مفهوم الإلهام لديه معنى أوسع وأشمل :
«إننا كرجال نحتاج ملهمات في الحياة . . لأن الحياة نفسها تتطلب منا إبداعا في عيشها» .
لهذا كان بحثه المستمر لا يقل استماتة عن بحثي .
الفرق بيننا أنني كنت أنجب كتبا وكان يجني متعا .

إن كان حسن طالعي قد وضع في طريقي نساء ملهمات

من النوع الكريم، فهناك بالطبع، عدد كبير من الفتيات والنساء اللواتي عبرن حياتي من دون أن يخلِّفن في ذاكرتي العاطفية ولا الأدبية ذرة غبار واحدة. غالبا ما تقتصر علاقتي بهن على لقاء يتيم أو اثنين، أشخص أثناءهما علّتهن، وأبتعد دون رجعة حفاظا على صحة قلميّ.

هكذا وتدريجيا اكتسبت خبرة في معرفة النساء وبدأت أفرِّق بكل أنانية، أو واقعية، في ما يخص العلاقات الإنسانية، بين التي هي أساسية لتوازني ككاتب وبين التي هي ثانوية أو مضرة. مقتنعا بقول روني شار:

«الأساسي مهدد دائما من طرف ما هو تافه».

هناء، مثلا، كانت أساسية لكونها تمثل الاستقرار. . إلا أن الأمان والاستقرار لا يحركان الإبداع فينا، بل قد يعيقانه ساعة يطل علينا كوحي.
«الاستقرار هو أخطر شيء يتعرض له مبدع مثلك» يقول عمر.
لكن الإبداع ليس بالعملية المستمرة. فبين كتاب وآخر، مغامرة وأخرى، كنت أعود إلى هناء، كما يعود محارب إلى وطنه، منتصرا كان أو مهزوما، بيقين أن «الوطن غفور رحيم».

هل يعني هذا أن كل العلاقات الأخرى لم تكن ذات أهمية؟

لا، سأكون ظالما لكل هؤلاء النساء اللواتي كنّ «العامل المحفّز» أو «الكتاليزور» التي تسهل التفاعل الكيميائي، الذي يولد الكتابة لدي، فهن طرف في الإبداع. ولقد أحببتهن جميعا بطريقة أو بأخرى.. ولا بأس لو أصبحت عاطفيا في نهاية حياتي، لقد قضيت العمر وأنا عملي.

أظننا جميعا نصبح عاطفيين مع مرور الزمن..

لأن لا أحد مؤهل للشيخوخة.»

شرد الأستاذ إدريس وهو يكاد يسمع عمر يقول بخفة دمه المعتادة:

«لا بد أن يبقى فكرنا مستثارا بكل ما هو جميل وذكي ومحفز»

قبل أن يضيف مازحا:

«من دون أن نشرح ضرورة الملهمات للزوجات»

كانت كوثر آخر ملهماته. شابة تعمل مضيفة في شركة الطيران الإماراتية. تعرَّف عليها في إحدى رحلاته إلى معرض الكتاب بالشارقة.

امرأة جميلة وذكية من النوع الذي يعشقه.. كان يعشق ذكاء المرأة قبل جسدها. مؤمنا بأن: «العقل هو منبع الإلهام».

«الرجل يخاف المرأة الجميلة والذكية في الوقت نفسه لأنها تملك سلاحين وهو لا يبارز إلا بواحد.» كما يعجبه أن يردد.

ويوم الحادث، كانت كوثر عائدة من الإمارات، وذهب هو من فرط شوقه ليستقبلها بمطار محمد الخامس الدولي. لم يخبرها بنيته حتى يفاجأها بحضوره.
لكن الحياة فاجأتهما معا بقدر لم يكن في الحسبان.

استفاق الأستاذ إدريس من شروده ليلقى نظرة على ساعة يده. وإذا به يقفز من خلف مكتبه. أمسك بسترته وخرج بعجالة متوجها نحو «مصحة الخير» وكأنه يلبي نداء.

9

مثل خلية نمل، تتحرك الممرضات بقسم الإنعاش في كل اتجاه.

بغرفة ناصعة البياض كآلة للتبريد، تجلس أمينة في حضن ليل موحش، كأنها شهرزاد، وهي تحكي لشهريار متربع في غياهب اللاّ وعي، عن قصة كانا في أحد الأزمان بطلين لها:

«كان من الممكن أن أعود إلى العمل بعد وفاة قيس، وكم نصحتني صباح بذلك. لكنني عزفت لأوجِّه كل عنايتي إلى خولة التي كانت دائما - بحجة أنها تتمتع بصحة جيدة - تأتي في المرتبة الثانية بعد أخيها، كما أقنعتني.

كنت تقول لي: تمتعي بوقتك يا حبيبتي وبابنتك ودعي التعب لي».

لزمتني سنوات لأعرف نوع التعب الذي كنت تعاني منه. وقد أصبح الشك معاناتي الأساسية.

قلتَ مرة في سهرة مع بعض الأصدقاء، بصراحة أوحتها إليك كؤوس الويسكي، لصديق لنا طلق زوجته حديثا:
«أنت طلقت زوجتك لتتزوج الحياة وأنا فضلت الاحتفاظ بهما معا.. زوجتي والحياة».
ضحك الجميع من خفة دمك إلا أنا. ما أردتَه مزاحا أحسسته حقيقة. وأصبح التجسس عليك شغلي الشاغل.
وكما يقول المثل الشعبي «أنْبَش تجْبَدْ حْنَشْ» نبشتُ فوجدت أفاعي تروِّضها
كمهرجي «ساحة جامع الفناء».

لم يكن من الصعب وجود شاب عاطل، أكلفه بمهمة التجسس عليك، فيتبعك في كل تنقلاتك. تعاملت مع الكثيرين. منهم من اشتريت له دراجة نارية، منهم من ابتزَّني، منهم من تعاطف معي، ومنهم مَنْ تحرّش بي، ومنهم من سقط في حبي.

المرة الأولى، التي اكتشفت فيها بأن لك عشيقة كانت قاسية بالتأكيد، مررت خلالها عبر كل مراحل الانفعال:
الغضب (الحقير، الخائن..).
فقدان الثقة بالنفس (هل لأنني أصبحت أسمن؟ هل أنا قبيحة؟ هل لم يعد يحبني؟..).
الإحساس بالذنب (أنا التي انشغلت عنه، أنا التي أهملته، أنا التي تركته يتسرب من بين يدي..).

ثم الإحساس بالضياع والاكتئاب (أكره نفسي. . أكره الحياة).

قبل أن أقرر الانتقام (هل أخونه؟ هل أشوه صورته في المجتمع؟ هل أقتله أم أقتلها أم أقتلهما معا؟).

لكن للإنسان قدرة خارقة على النهوض. هكذا اخترعت فلسفة على مقاسي تجعلني أضع مسافة بين الأحداث وبيني، بينك وبيني (إنه التطور الطبيعي لكل علاقة حب، الرجل في حاجة إلى تغيير حتى يثبت رجولته. هذا لا يعني أنه لم يعد يحبني، ثم هو يقوم بواجباته على أحسن حال، ويسهر على سرية علاقاته حتى لا يجرح إحساسي، و. .).

بعد أن قطعت كل هذه المراحل من دون أن أموت خلالها. علمت أنك لن تستطيع إيلامي أكثر من هذا.

فقدتَ سلطتك على تدميري إلى الأبد.

لماذا لم أرحل؟

لماذا لم أطلب الطلاق؟

لماذا كنت أتشبث بك أكثر كلما دخلت في علاقة مع أخرى؟

لماذا لم أخبرك بمعرفتي بكل شيء؟

وحدها أمك كانت على علم بعذاباتي. كانت تقول:

«لا تكوني غبية فتهدمي كل ما بنيته، لا تدعيه يحس

بأنك على علم بما يفعل. لأن ساعتها سيصبح لزاما عليك الرحيل حفاظا على كرامتك. دعيه جاهلا بمعرفتك لخيانته ليستمر في اتخاذ الاحتياطات اللازمة.. اجعلي هيبتك كاملة بالبيت.. دعيه يخاف من اليوم الذي تواجهينه فيه بحقيقته.. دعي الخوف يؤجج إحساسه بالذنب».

وتضيف مازحة:

«الرجل في هذا الزمن إذا خرج من بيته صباحا وعاد ليلا فهذا من فضل الله على زوجته. من يستطيع مقاومة البنات في الشوارع؟ إنهن كالحوريات، جميلات، صغيرات، متحررات، تسرقن الكحل من العين؟ من؟ إلا الذي أخذ الله بيده.. لا تكوني حمقاء يا ابنتي».

أقنعَتْني بأن أكون زوجة عاقلة. وكاد يقتلني تعقُّلي.

وبدل أن أهدمَ بيتا بنيتُ سقفا جديدا مقتنعة بخبرة والدتك في الموضوع.

وهكذا حبلت بابننا «أمير» كتأكيد على استمرارية علاقتنا، على أنني أنا الأصل كما تقول والدتك:

«أنت الملكة فما شأنك بالجواري».

كم حسدت الجواري، تعطيهن حنان بداياتنا وقُبلا قد تفقدهن الوعي.

حافظت على صورتنا في المجتمع: الزوجان المثاليان، «قيس وليلى».

كانت حياتي عادية رتيبة، وبينما كانت صديقتي صباح تجتهد في تحقيق أحلامها في النجاح مهنيا، كان اجتهادي مضاعفا في إنجاح حياة عادية.

صدقني، ليس من السهل إنجاح حياة عادية.

الشغف حليف النجاح وكان عليَّ أن أنجح رغم انعدام الشغف.

وكما اخترت أنت الخيانة لتظل وفيا للزواج، اخترت أنا الصّمت لأظل وفية لك.

تبنيتها كطفل أنجبته من أخرى وجئت به للعيش معنا، كشيء من صلبك لا يسعني رفضه، مادام تشبثي بك كاملا.

اعتبرتَ نفسك ذكيا إذ تراوغ بذكاء.. وما شككت يوما في ذكائي الذي حفظ مراوغاتك عن ظهر شك.. وحفظ سرها.. لتظل أنت الأذكى.

أتعلم آخر ما فعلت لتظل أنت الأذكى؟

قدمت العزاء لعائلة عشيقتك المرحومة كوثر في بيتها، بل وأكثر من هذا، قدمته على صفحات الجرائد.

أخرجت أمينة قصاصة من حقيبتها وأخذت تقرأ:

«تتقدم حرم الأستاذ عمر البديع مدير منشورات «مرايا» بأصدق التعازي إلى عائلة صديقتها المرحومة الآنسة كوثر

الأبيض. سائلة الله عز وجل أن يشمل الفقيدة بواسع رحمته ومغفرته ويلهم ذويها الصبر والسلوان. إنا لله وإنا إليه راجعون».

ما رأيك بنَصّ الخبر؟

أحيانا أحس بأنني مدينة لها بحياتي وكأنها ماتت بدلا عني.

ألم يكن من الممكن جدا أن أكون أنا التي بجانبك في السيارة أثناء الحادث؟

ألم يُضحّ بها القدر لأبقى أنا على قيد الحياة؟

هذا ما كانت ستقوله والدتك بالتأكيد لولا المرض اللعين.»

رن جرس الهاتف النقال. توقفت أمينة عن الكلام لترد:

- أهلا صباح، كيف حالك؟
- بخير، أين أنت؟
- بالمصحّة.
- كيف حال عمر؟
- لا يوجد أدنى تغيير.
- اسمعي، سأمُرّ عليك بعد ربع ساعة فأنت مدعوة للعشاء في مطعمنا الفرنسي المعتاد.
- مدعوة من طرف من؟
- من طرف صديقتك الرائعة صباح.

- يا لك من مهرِّجة. لماذا لا تأتين أنت للعشاء معي بالبيت.
- أما تعبت من روتين البيَت ومن مشاكل حماتك؟

أحست أمينة فعلا بأنها بحاجة إلى مرح صديقتها المشاغب وتواطئِهما الجميل. أجابت:
- حسنا، لكن بشرط.
- ماهو؟
- ممنوع الكلام عن عمر.
- أعدك بذلك.
- نلتقي أمام المصحة بعد ربع ساعة.

أنهت أمينة المكالمة وتوجهت نحو حمَّام الغرفة لتضع لمسة خفيفة من أحمر الشفاه على شفتيها، وبعضا من الكحل على رموشها، وهي تفكر بأن الماكياج خلق أكثر للساعات التعيسة، ليخفي قبح اليأس على الوجوه ويمنح وهما بالفرح.

ألقت على عمر نظرة طويلة، وقد غمرها إحساس غريب بأن الموت قد أخطأها بالفعل لتبدأ حياة جديدة.

10

«عند الحدود الفاصلة بين الولع والفتور كنت أقف راجفا..

ممزقا بين انجذابي نحو الهاوية ورعبي من الفراغ.. فراغي من الحب، مثل فراغي من الكتابة، لا يطاق.. فكلاهما كان مشدودا للآخر.. وكنت مشدودا لهما معا بخيوط غامضة».

ارتشف ادريس، الكاتب الناجح من فنجان قهوته رشفتين، قبل أن يواصل الكتابة:

«بينما كانت هناء تحاول أن توصل جنينا هشا بأحشائها إلى بر النجاة، بتفادي ما استطاعت من أخطاء، كنت أنا أبحث عن أخطاء أقترفها، تشكل بَرَّ نجاتي من ضجر مميت.

كان جهلها بما يجري بأحشائها كجهلها بما يجري في رأسي، وهذا شيء إيجابي، إذ هناك أشياء يستحسن الاحتفاظ بها لأنفسنا..

فحقيقة الإنسان تكمن في ما يخفيه.

آنذاك، توطدت علاقتي بعمر الذي أصبح ناشر أعمالي وأمين أسراري وصديق عمري.

كان يحب أن يكون مستقلا في عمله كما في حياته. لديه مطبعته الخاصة التي تحتل الطابق السفلي من عمارة يشغلها بأكملها، حيث خصص االطابق الأول للمكاتب التابعة للشؤون الإدارية وشؤون الموظفين لدار النشر، والطابق الثاني لمكتبه ومكتب سكرتيرته الخاصة.

وحتى تكتمل استقلاليته، جهز شقة صغيرة بالطابق الثالث لأغراض «إبداعية سامية». يمكن ولوجها مباشرة من باب بمكتبه، تمَّ فتحه بحيث يؤدي إلى سلم سري ومنه إلى الشقة من بابها الخلفي. وللمزيد من الحرص وضع على الباب الإضافي نفس الستائر التي على النافذة حيث يعتقد كل من بغرفة المكتب أنها نافذة ثانية.

لم يكن يعلم أحد غيري، من أصدقاء عمر، بوجود عش الحب هذا، وقد وضع جرسا بين المكتب والشقة حيث برنة واحدة يمكن إخبار من بالشقة بوجود غريب بالمكتب، وفي هذه الحالة ما على أصحاب الشقة إلا الخروج من بابها الرئيسي إلى خارج العمارة.

فتعدد الأبواب يجعل حركة السير متعددة الإمكانات والأبعاد، ويجعل الإبداع أكثر حرية وتشعبا على حد قوله.

كانت ياسمين أول من دشن عش الحب والإبداع معي.
طالبة عندي بكلية الآداب، متفتحة كزهرة جاهزة لقطافها، لها موهبة واعدة في ميدان الكتابة وأخرى مكتملة في ميدان الإلهام.
صدق أوسكار وايلد حين قال: «إن الإلهام يأتي من الأعماق».

كانت، طبعا، من القارئات النهمات لقصصي و المعجبات بأسلوبي المستفز الساخر. كلفتها ببحث حول التجريب في القصة القصيرة ولم أكن قد جربت بعد هذا الصنف الأدبي.
فإذا بنا ندخل سويا مختبر التجريب، مضحّين بوقتنا وبأنفسنا في سبيل الارتقاء بهذا النوع إلى أعلى.. أعلى ما يمكن من درجات المتعة.

«التجريب يستوجب تجريدا»
هكذا همست لها وأنا أجردها من ثياب بدت لي زائدة عن المعنى.
لم تكن من صنف الفتيات اللواتي يتعثرن حياء أمام أساتذتهن. جردتني بدورها من ملابسي بحركات بطيئة وعلى نحو أسقط عنى إحساس الثقة الذي افتتحت به طقس المغازلة. وبلمسات متقنة التجوال قلبت الكفة لصالحها وهي تهمس في أذني بغنج قاتل:

«استرخ.. دع نفسك لي.. لقد لقنتني الكثيرمن فنّ الكتابة.. دعني ألقنك بعضا من فني.. قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر.»

وقد كانت فيضا من أنهار وبحار وأمطار طوفانية.. وكنت البيداء التي لا ترتوي.

أنهينا شوطا أوليا، وإذا بها تطلب مني أن أستلق على بطني هامسة:

«دعني أقبل قارتك المجهولة.. ظهرك الذي لا ينتبه أحد إليه»

وهكذا مرت بي إلى شوط ثان، دون أن تعفيني من الأشواط الإضافية لتخرج منتصرة في أول مقابلة بيننا.

فاقت مهاراتها الجنسية مهارات كل اللواتي عرفتهن من قبلها.. كما تفوقت في لعب دور الملهمة بامتياز.

بحيث كلما انتهينا من ممارسة الحب، موظفين الخيال العلمي والفانتازيا، وجلستُ إلى المكتب، إلاّ و تنهال علي الأفكار من حيث لا أحتسب.

فمع كل لقاء بها أخط قصة بأكملها.. أكون أول من يفاجأ بالبناء المتماسك لأحداثها.

وهكذا، أصدرت أول مجموعة قصصية كانت فتحا في فن التجريب بالمغرب.. واعتبرها النقاد مدرسة جديدة.

لكن الكمال ليس من صفات البشر. .

لقد دفعها طموحها لكتابة قصص تشبه قصصي، مقلدة أسلوبي الساخر، مستعملة أدواتي السرية، مستغلة معارفي. حتى عمر طلبت منه أن ينشر لها. ولولا أنه وفيّ لصداقاته، ولي بالأساس، لكانت قد سحبت البساط من تحت قدميّ. .

فقد كان «اللّي في رَاسْ الجْمَلْ في راسْ الجَّمّالْ» على حد قوله.

من يومها، اتخذتُ قرارا بعدم مصاحبة من لها مثل طموحي، ولا من هي في نفس مجالي. . وعدم الخلط بين العواطف والعمل وقد اتضح لي جليا بأن الطموح يركب فوق الحب ليصل إلى مبتغاه.

هذا، باختصار شديد، ما حصل مع ياسمين التي تعاملت مع عواطفي بكل انتهازية.

أكاد أسمعكم توشوشون: «مثلك».

أجل، هذا صحيح. . لكن من كان يجرؤ ساعتها على المقارنة بينها وبيني؟

كنت كاتبا ناجحا لديّ قراء والتزامات، وكانت مجرد مبتدئة رماها حسن طالعها بين أحضاني.

كان من الممكن جدا، أن أجعل الجميع يعتقد بأنني من يكتب لها القصص، كما فعل غيري مع بعض الكاتبات

الموهوبات، وما أكثر من هم على استعداد لتصديق هذا النوع من الادعاء.

لكن انتهازيتي لا تصل حد الغباء.

ثم إن تقديسي للكتابة، وإيماني الراسخ بأنه لا أحد يكتب لأحد - تماما كما أن لا أحد يعشق مكان أحد ولا أحد يعيش أو يموت بدلا عن أحد- جعلني أفضل الانسحاب من علاقة انقلبت ضدي.. أضحيت أنا المُلهِم فيها.

منذ ذلك الحين، تنازلتُ لعمر عن كل الكاتبات والشاعرات وكل من تشهر قلما في وجهي، باستثناء الصحافيات اللواتي تخلين عن حلمهن في أن يصبحن يوما أديبات، لبراعتي المكتسبة في توظيف أقلامهن في خدمة قلمي.

وحمدت الله على أن هناء لا طموح لها غير إسعادي.»

طوى الكاتب الناجح دفتر سيرته وأقفل عليه في درج المكتب كما اعتاد أن يفعل من أيام زوجته هناء، هو الذي ظل وفيا للورقة والقلم في عهد الكمبيوتر.

أشعل سيجارة وسرح في ياسمين وهو يسأل نفسه بموضوعية تمنحها المسافة التي تفصله عن الحدث:

«هل كنت أنا الأناني؟ أم كانت هي الانتهازية؟ أم أنه

الإبداع يجعل كل اختياراتنا تصب في اتجاه خدمته أولا، ولا يقبل منافسا له وإن كان الحب ذاته؟»

أقر مع نفسه الآن، وقد أصبحت من الأسماء اللامعة في سماء الأدب، بأنها فعلا موهوبة.. فليس باستطاعة أي أستاذ مهما بلغت كفاءته أن يلقننا الإحساس.. ولا أحد يستطيع حجب المواهب الحقيقية إن هي أرادت أن تتحقق.

تذكَّر آخر مرة صادفها،
كان ذلك خلال تظاهرة ثقافية.. لاحظ كم زادتها الشهرة جمالا وثقة بالنفس، ولم يستطع كبح نفسه من إظهار رغبته في أن يستعيد معها لحظات حبهما المحمومة، لكنها قالت له بنبرة متعالية وحاسمة:

«أحتاج إلى نسيان الكتب السابقة حتى أكتب اللاحقة، وبما أنني لا أعود أبدا إلى قراءة كتبي القديمة، فأنا لا أستعيد علاقة ولّى زمنها..»

كان هذا، بالتأكيد، أحد الدروس التي لقنها إياها في غفلة منه.

11

مطعم أنيق بشارع مولاي يوسف، ذو حديقة فسيحة مزهرة، وموسيقى الجاز تزيده رونقا.

عيون صباح تتجول في قاعة المطعم الداخلية كأنها ترتاده لأول مرة. هي عين المخرجة تدقق في كل ما قد يكون مادة تصلح لتصوير فيلم وثائقي.

سألت أمينة:

- عمّ تبحثين؟

- عن لا شيء. يعجبني أن أخمن من خلال طريقة جلوس اثنين، على طاولة طعام، إن كانا عاشقين أم زوجين.

- كيف ذلك؟ أفيدينا.

أصلحت صباح من جلستها، قبل أن تشرع في شرح نظريتها في الموضوع، وأمينة كلها آذان صاغية.

- عندما ترين امراة ورجلاً متقابلَيْن حد الالتصاق، وعيونهما تكاد تأكل عيون بعض، والأيدي تتلامس دون نية

أو بنية خفية وهما يتسابقان على الكلام، كلام ينساب كضحكهما، بينما الأطباق تنتظر وهما يلتهمان بعضهما.. كل يحاول أن يشبع بحضور الآخر. فهما عاشقان.

ولو كانا زوجين فزواجهما لم يكمل بعد سنته الأولى.

ثم غمزت بعينيها مواصلة:

- انظري على يمينك فهناك مثال حي.

أردفت أمينة بنبرة اقتناع:

- جميل، وكيف تتعرفين على الأزواج؟

- التفتي قليلا على يسارك، لاحظي كيف يتصرف هذان: ينغمسان في الأطباق، يؤثثان الصمت بصوت السكاكين والشوكات ويرددان بين الفينة والأخرى، كما في اعتذار، «كم هو لذيذ!»، حتى وإن كان هذا الطعام صنيع أرذل الطباخين. يتعثر الكلام بين كؤوس ما تكاد تفرغ حتى تملأ بسرعة للوصول إلى حالة انتشاء تلطّف الجو.

تطلق أمينة ضحكة صافية سائلة:

- ألا يمكن لزوجين أن يجدا موضوعا للحديث؟

- ممكن طبعا، المحظوظون منهم، هؤلاء يجدون موضوعا مشتركا مثل: تكاليف الدراسة أو مواعيد طبيب الأطفال قصد التطعيم... وهناك من يشتغلان معاً في الشركة نفسها، يحولان الوجبة إلى جلسة عمل يخططان أثناءها لمستقبل ملزمان به، وإن لم يعد يستهوي أحدا منهما.

قالت أمينة وقد نجحت صباح، كعادتها، في الاستحواذ على اهتمامها:

- يا لك من خبيثة! وماذا غير طريقة الجلوس إلى طاولة الطعام تشي بنوعية العلاقة؟

- شكل السرير.

- كيف ذلك؟

- الأسِرّة بغرف نوم الزوجين تنطق بكل الأسرار.

- آه، أكملي..

- لو تنظرين إلى سرير في بداية العلاقة الزوجية، وسرير بعد مضي زمن الحب، تجدين أن الحفرة التي كانت في الوسط قد تحولت إلى حفرتين بينهما ارتفاع كهضبة تشهد على المسافة العاطفية والجنسية بين الطرفين.

- في هذه معك حق، فسريرنا بالبيت يكاد ينقسم إلى نصفين.

حضر النادل، فأجبرهما على الصمت، سجل طلباتهما وانصرف في أدب.

قالت أمينة مازحة وهي تعقب على نوعية الطبق الذي طلبته صباح:

- لا تكثري من أكل «الجنسنغ» إنه مثير للشهوة أعني «أفروديزياك».

أجابت صباح بمكر:

- لا شيء «أفروديزياك» سوى الآخر.

قبل أن تضيف بلطف شديد:

- دعينا من الآخرين، كيف حالك أنت؟

- أرجوك، دعيك مني.. أنا أريد أن أضحك الليلة وأن أنسى نفسي. كلميني أنت عن مغامراتك العاطفية فهي ألذ وأشهى. آه! أين وصلت قصتك مع الصحافي الوسيم صاحب برنامج «سمر الليل» هل سقط في شباكك أم ليس بعد؟

- لقد سقط لكنني سرعان ما قذفته خارج الشباك.

- لماذا؟

- لأنه نرجسي ينتظر من المرأة أن تفرح وكأنه هدية ثمينة ما كانت لتحلم بها.

- لكنه كان مهتما بك كما قلت.

- أقل من اهتمامه بنفسه. أتعلمين؟ كونه وسيما في شكله لا يعني بالضرورة أنه وسيم في عواطفه، وسيم في سلوكه.. أو وسيم في ممارساته. أنت تتعودين مع الوقت على الوسامة الشكلية كما تتعودين على القبح. المهم روحه يا عزيزتي.

ما نفع وسامة لا تستطيع أن تلامس روحك؟

عقبت أمينة بعد أن انصرف النادل الذي صب لهما نبيذا أبيض:

- يبدو أنك هاوية قبح. تتذكرين صديق عمر «وجه

الكلب» كما كنا نلقبه؟ لم يفهم أحد ساعتها كيف قبلت الدخول معه في علاقة.

- تصوري، لقد كان ذاك الوحش صاحب الوجه الحيواني أحسنهم. كان يقدس الجمال لفرط ما يفتقده في جسده. يفتتح طقوس الحب بالنظر إلى كل تفاصيل جسدي بخشوع واصفا ببراعة وبلاغة كل قطعة منه، حتى أشتعل رغبة وأطلب منه أن يأخذني بعنف. حينها يشرع في خلع ثيابي بتأن مميت وكأنه يؤدي مراسيم سحرية.. ثم تبدأ يداه في لمسي وكأنه ينحتني. آه! لقد عرفت معه اللذة كما لم أعرفها من قبل. لم يفهم أحد كيف أختار واحدا أكثر من دميم. ربما كان وحشا يسير على الأرض لكن وحشيته هاته كانت تضفي عليه كاريزما يشحنها صوته الرخيم.. أبدع صوت ذكوري سمعته في حياتي.

هل تصدقين لو قلت لك إنه رغم كل التجارب التي عشتها، وما راكمت من مغامرات، مازال هذا الوحش هو أحسنهم؟

- صدقناك فأنت أصبحت خبيرة في الموضوع.

- تأكدي أيتها الخائبة، أن الوسيم هو من يزداد وسامة عندما تتعرفين عليه أكثر. والقبيح من يطفو قبحه عند معاشرتك له.

وأن المرأة تفضل بدل الرجل الجميل الرجل الذي يجعلها الأجمل.

عاد النادل ليضع الأطباق على الطاولة، تستأنف أمينة بعده:

- يا سلام، ومن هو أسوأهم؟

- صديق زوجك، «الكاتب الناجح».

- مستحيل.

- لماذا مستحيل؟ كونه يكتب لا يجعل منه فارسا. ربما يعرف استعمال قلم الحبر لكنه يجهل تماما ما تنتظره امرأة من قلمه الخاص.

- شوّقتني، لم يسبق لك أن أخبرتني بهذه العلاقة.

- لأنها لم تكن مهمة على الإطلاق في مساري الجنسي يا حبيبتي.

ضحكا مطولا وهما ترشفان النبيذ.

عادت أمينة ملحة:

- واصلي، هيه.. ما هو الأسوأ فيه؟

- تخيلي، أنه بعد ممارسة الجنس مباشرة، وأنا مازلت أسترد أنفاسي، نهض مهرولا ودون أن يرتدي ثيابه جلس على مكتبي وبدأ يكتب ويكتب من دون حتى أن يلتفت إلي أو يكلمني. كان غارقا في الكتابة وأنا أنظر إليه محاولة فهم ما يجري. وعندما أنتهى، بعد ساعة تقريبا، جلس بجانبي وأراد أن يقبّلني، وكأنه فتح قوسا وأقفله. لكنني أبعدته بحركة واحدة، وقلت له: «ألبس ثيابك وارحل ولا تعد إلى هنا أبدا.»

تطلق أمينة ضحكة مجلجلة وهي تقول:

- أمعقول هذا؟

- أجل، كانت هذه أول وآخر مرة.

- غريب ما تقولين. وماذا قال قبل أن يرحل؟

- قال بعجرفة: «نحن قوم لا نسعى ولكن يُسعى إلينا».

- يا لغرابته!

- هو أناني فوق العادة. إنه من النوع الذي يأخذ منكِ كل شيء، حتى لحظات المتعة التي منحك إياها. كمن يفرش لك بساطا حريريا ويسحبه من تحتك حالما تتمددين فوقه.

- أكاد لا أصدق، مبدع بهذا الحجم؟

- لا، صدقي يا حبيبتي، هو رجل غير قادر على ضم امرأة إليه بعد الجنس.. جاهل بأن هذا هو الإبداع الحقيقي. هو لا يحب المرأة، ولا يحب الحب، ولا يحب الجنس حتى. هو يحب الكاتب فيه، فقط لا غير. أما الإنسان فقد توارى إلى غير رجعة وراء أوراقه وأقلامه.

تقول أمينة بنبرة من لم يستوعب بعد:

- عمر يفضله على كل الكتاب، يقول عنه المبدع الحقيقي.

- زوجك هو المبدع الحقيقي، أغلب الكتاب مبدعون على الورق أما هو فمبدع في الحياة. لو لم تكوني صديقتي لأغويته.

- تفعلينها يا بنت الكلب.
- لا، أبدا، للفساد أخلاقيات أيضا.

سألت أمينة في تهكم:
- وهل للفساد أخلاقيات فعلاً؟
- طبعا، لعالم الفساد قوانين وأخلاقيات وميثاق شرف.
أما شاهدت أفلاما عن «المافيا»؟ أما لاحظت علاقة أفرادها ببعضهم البعض والصرامة التي يعاقب بها من خان زملاءه؟ كذلك الشأن بالنسبة للمومسات فمن أخلاقيات الوسط ألا تغوي إحداهن حبيب صديقتها، لأنهن يفرقن بين الحب كعاطفة لا تُباع ولا تُشترى وبيع الجنس كمهنة يعشن من أفضالها.
- ماهذه المقارنة؟ أظن أن هناك فرق بين امرأة متحررة مثلك ومومس.
- ما هو الفرق في نظرك؟
- الفرق أنك أنت لا تبيعين جسدك ولا تعيشين من ممارسة الجنس.
- أجل، لكن الفرق الأساسي يمكن اختصاره في كلمة واحدة: «الاختيار».
أنا أختار عشاقي، بينما هي يختارها زبائنها. حرية الاختيار هي التي تجعل مني امرأة حرة.
قالت أمينة مازحة:
- لنشرب إذن نخب «حرية الاختيار».

رفعا كأسيهما وهما يضحكان ويرددان معا مقولة للكاتبة «جورج ساند»، تبنتها صباح عن جدارة وحفظتها أمينة لفرط ما سمعتها من صديقتها:

«لست معجونة من فضيلة، ولا من أخلاق نبيلة، أحب فقط، لكن أحب حد الجنون، مستبدة أنا ولي عطش للمطلق.»

أنهيا عشاءهما وغادرا المطعم وصباح تفكّر بإنجاز فيلم وثائقي حول أخلاقيات الفساد.

12

تتساقط الصور شاحبة من الذاكرة..

ويتساءل الأستاذ إدريس عن مدى صدق ما يكتب..
وهل صحيح أن الأحداث هكذا مرت، أم أن إحساسه الآني بها هو ما يجعله يعتقد بأنها الحقيقة؟

وما الذي تضفيه المسافة التي تفصلنا عن الحدث من ظلال أو نور.. من تأويلات يمليها نضجنا وما اكتسبناه من تجارب والنسبية المرتبطة بالزمن؟

لكن سرعان ما قرر مع نفسه أن يلتقط هذه الصور، كما جاءت، ليدونها دون الخوض في تفلسف قد يعيق عملية الإبداع. إذ عليه الخوض في الكتابة لا في التفكير في مكوناتها.

«كنت أعتقد أن الملهمة لابد أن تكون من قارئاتي، أعني من المعجبات، ويفترض فيها، بالطبع، مستوى أدنى من الثقافة.

لكنني مع زَيْنة اكتشفت خطأ اعتقادي.

من تكون زَيْنة؟
زيْنَة كانت خادمة، أسند إليها عمر مهمة تنظيف شقته السرية ثلاث مرات في الأسبوع. وحفاظا على المزيد من السرية، لم يكن تنظيف المكاتب والمطبعة من مهامها.

أول مرة صادفتها، كانت تمسح البلاط. مولية ظهرها إلى الباب الخلفي، الذي فتحته بالمفتاح بلطف كعادتي، فقد نسي عمر أن يخبرني بوجود أحد بالشقة.

مشهد مؤخرتها وهي منكبة على البلاط، وضفيرتها مائلة على كتفها، أعادني إلى سنوات الطفولة، حيث كنت أقفز فوق ظهر رقية ابنة عمتي كلما انحنت لتمسح البلاط ببيتنا. وأنا أصرخ بها كما لو كانت دابة: «أرَّ. . أرَّ. . أرَّ».
كان عمري حينذاك خمس سنوات، وكانت رقية ضيفة علينا من البادية لتعلم الخياطة. مازلت أذكر كم كنت أجد متعة كبيرة وأنا أمتطي رقية. وكم بكيت بمرارة يوم رحلت عنا لتتزوج أحد أبناء القرية. أبكي وأردد «أنا من سيتزوجها» وأمي لا تعرف كيف تواسيني كاتمة ضحكها.

منظر مؤخرة أمامي، لامرأة لا أعرفها، أيقظ بأحشائي رغبة دفينة، أحسستها جامحة، في القفز على ظهرها وامتطائها.

لكنها هي من قفزت ناهضة، وارتبكت وقد احمرت وجنتاها. تلعثمت وهي تقول بعربية تغلب عليها لكنة أمازيغية رقيقة:

- اسمح لي يا سيدي، السي عمر ما كاين هنا.

قلت بأنني أعلم ذلك، وقدمت نفسي بأنني صديقه وبمثابة صاحب الشقة الثاني.

اعتذرت، وأخذت تفسح لي ممرا نشفته بالممسحة، محذرة إياي من الانزلاق.

قلت في نفسي بمكر «ليتني أنزلق على ظهرها».

طلبت منها أن تعد لي شايا. وهي تقدمه بابتسامة خجولة سألتها عن اسمها ومن أي منطقة جاءت وأسئلة أخرى بدافع فضول كنت أول من استغرب له.

وهكذا عرفت أنها من قرية «إيمينتانوت» بضواحي مراكش. جاءت إلى الدار البيضاء بعد وفاة زوجها، عند إحدى قريباتها، بحثا عن شغل لتعيل ولديها وتحقق أمنيتها في تعليمهما.

انتبهتُ إلى أنني تحدثت معها أكثر من اللازم وأخّرتها عن شغلها.

يقول عمر:

«عندما يطيل رجل الكلام مع امرأة فهذا يعني أنها قد أعجبته».

أجل أعجبتني.

أنا الذي ينطلق من فرضية أن الإعجاب وجه من وجوه الحب.

أعجبتني لهجتها والحياء الذي يصبغ وجنتيها.. أعجبتني حركاتها التي تشي بأنها مازالت بدائية كغزالة متوحشة أتت لتوها من الغاب.. جميلة في بساطتها.. حقيقية دون مساحيق..

أعجبني قدها الملموم ومؤخرتها المكتنزة.

قلت لها:

- يمكنك اتمام شغلك لا تأبهي بوجودي.

ومكثت بالصالة أرقبها خلسة وهي تعيد الأثاث إلى مكانه.

لا أخفيكم أنني أصبحت أنتظر مواعيد تنظيف الشقة على نار، وهي تدللني كل مرة أكثر، بأطعمة أمازيغية منذ أخبرتها بحبي للأكل الأمازيغي. فمرة تحضر لي «آملو» بزيت أركان واللوز والعسل. ومرة «هَرْبَلْ» بالقمح المكسر المطبوخ في الحليب على نار هادئة، مضيفة إليه الزبدة البلدية والعسل. وأخرى تفاجئني بطاجين أمازيغي باللحم والخضر أو قصعة كسكس بالذرة الصفراء أو بالشعير..

لأول مرة عرفت متعة أن تهتم امرأة بحاسة ذوقي.

معها أحسني بدائيا، أقرب ما أكون من الطبيعة، آكل

بيدي، أغمس الخبز بأصابعي في الطاجين بنهم عامل بناء، وتصر هي على أن تأتي بطست صغير تصب الماء على يدي لأغسلهما كما لو كنت ضيفا عزيزا.

كان مجرد حضورها بالشقة يجعل قلمي ينطلق وتطيعني الكتابة.

لكن هوسي بجسدها يكبر يوما بعد يوم كما لا تفارقني صورة مؤخرتها وهي تمسح البلاط.

ومرة جئت الشقة متعبا بعد أن تمشيت طويلا على الشاطئ، فإذا بها تحضر طستا فيه ماء ساخن وبعض الملح، وطلبت مني أن أضع قدميّ فيه. وما إن فعلت حتى بدأت في تدليك قدميّ بكل تلقائية.

وأنا طفل صغير كانت أمي تدلك أقدام والدي كلما عاد متعبا، وكنت أغار منه، وعندما أنزع حذائي لأضع قدميّ الصغيرتين في الطست، ينهرني فأمضي باكيا وحزينا.

كان لأناملها، وهي تدلك بلطف قدميّ، وقع مدمر على حواسي..

شعرت بانتصاب قاهر ولم أدر كيف أمسكت بيديها..

جذبتها بقوة نحوي.. وقبلتها بكل حرارة.

لم تمانع، بل بادلتني القُبَل بشغف.

حملتها إلى الغرفة كما نحمل عروسا ليلة زفافها، ألقيت

بها على السرير، حررت ضفيرتها.. فانبعثت رائحة القرنفل والورد من شعرها الداكن الطوِيل.

نزعتُ قمصانها.. قميصا، فقميصا ثم سروالها. لم تكن ترتدي رفاعة فنهداها لم يكونا في حاجة لذلك.. يقهران قوى الجاذبية.

ثم امتطيتها.

امتطيتها كما حلمت.. من الخلف.. وهي في وضعية مسح البلاط.

بعد هذا العراك الحيواني اللذيذ، جلست مباشرة، في عري تام، على المكتب. وشرعتُ بمتعة عارمة في الكتابة.

لم تنبس بكلمة. نهضتْ في هدوء، أعدت لي كأس شاي منعنع، وضعته على المكتب من دون أن تزعجني، وانصرفت لإتمام شغلها بالشقة.

وهكذا، وبكل بساطة، استقر بيننا طقس دون أن نبرمج له أو أن نتفق عليه. أحضر إلى الشقة لأجدها قد أعدت أكلة أمازيغية، أتناولها بلذة كبيرة، ثم أمارس معها الجنس بلذة أكبر، أكتب بعدها مستمتعا بكل حرف أخطه.

كانت تخلق حولي عالما قريبا من رغباتي الحقيقية..

كان كل شيء معها سهلا، تلقائيا يأتي من غير نقاش.

لا تسألني عن شيء أبدا. تتحرك وفق إحساسها وتتعامل مع الأشياء بحدسها.

كل النساء أتعبنني بطريقة أو بأخرى إلا هي. كانت عطاء مطلقا في صمت. وكأن شفتيها خلقتا للابتسام وللقبل فقط.

استمرت علاقتنا لسنة أو أكثر، كتبت خلالها أنجح أعمالي.

كانت أخصب فترة عرفتها ككاتب. ربما لأن التوترات التي تخلقها كل علاقة عاطفية، والوقت الضائع في النقاشات والاستفسارات العقيمة، لم تكن موجودة مع زيْنَة.

لم تطالبني يوما بشيء.

هل أحببتها؟

بالتأكيد، أحببتها كما نحب زهرة برية تغدق علينا بعبيرها.. أو نخلة جنوبية تسقط ثمارها علينا ولا تنتظر شيئا بالمقابل.

أعادتني زينة لجوهر الإنسان فيّ. وبقدر ما أعطتني كامرأة، بقدر ما أعطيت الكتابة أثناء علاقتنا، إن صح التعبير، لأنها لم تجعلني يوما أحس بأن لنا علاقة بمعنى الارتباط الذي يكبِّلك بشيء.

كانت حرة مثل ظبية متوحشة.

عطاؤها لا يجعل منها جارية أو أمَة لأحد.

وبقدر ما تحترم حريتك، تحتِّم عليك احترام حريتها.

طريقتها في ممارسة الحب تخلق لديك الإحساس بأنه اختيارها كما أنه اختيارك. تمارسه بجوارحها كاملة كما تأكل «آملو» بالتلذذ نفسه.

لا تفلسف شيئا ولا تحاول أن تستخلص من إحساس طبيعي نظرية ما.

وإذا كانت بعض النساء في زمننا قد اخترن أن يغيرن الحياة فهي اختارت أن تعيشها فقط.

وأنا في عز استمتاعي بسحر زينة الهادئ، تعرفت خلال سهرة عند أحد الأصدقاء على نجمة من نجوم الغناء الجديدة.

دعوتها إلى الشقة يوم عطلة زينة. لكن عمر الذي كان يُحضّر لبرنامج في المساء مع إحدى ملهماته، كان قد طلب منها أن تعدّ له بعض الأكل وتدعه في الثلاجة.

وهكذا وجدتني وجها لوجه مع زينة بصحبة نجمتي التي عاملتْها بترفع واحتقار شديد.

كان آخر يوم لي مع زينة التي اختفت بعد ذلك كما لو أن الأرض انشقّت وابتلعتها».

كف الأستاذ إدريس عن الكتابة، وقد سرت قشعريرة

الذكرى في جسده، بطعم رضابها، برائحتها، بحفيف اللحاف الذي ألقي به أرضا.. ببحة تأوهاتها.

انتبه إلى أن ضوء الفجر قد تسرب عبر نافذته التي تطل على عالم يحرسه مواء قطط شاردة.

شرد بدوره في زينة.

لماذا لم يكلف نفسه عناء البحث عنها يوم اختفت.. ليعتذر لعزة نفس أمازيغية حرة؟

رحلت كظبية جريحة لتختفي في الغاب.. تلعق دماءها بعيدا عن عيون من كان السبب في إيلامها.

لقد استطاعت أن تجعله يحترمها أكثر.. ويقدِّر كبرياءً لا ينبع إلا من قلب نبيل،

حين واجهت فظاظة النجمة بصمت، هو كل سلاحها، لتنسحب في هدوء مسلمة بأن المنافسة في مثل حالتها غير واردة تماما.

أمسك بالقلم من جديد كمن يريد تشريح فكرة تعبث به.. وعيا منه بأن كتابة الأشياء تساعده على فهمها.

أضاف قبل أن ينهض ليرتمي على سريره:

«تظل المرأة، والحب، والكتابة، ألغاز بالنسبة إلي.. ولربما هذا ما يحفزني على الإبداع».»

كان الرجل الذي كنته مركز الكون، كل شيء ينطلق منه ليعود إليه.

يهرب من كل محاولة فهم لثغراته لفرط ما كان مشغولاً بملئها..

دائم الجوع للنساء.. يحبُّهن لدرجة السادية..

ما إن تعجبه واحدة حتى يدخل في تحد مع ذاته..
يمسك بكل الخيوط الغامضة التي تنبعث من شخصيتها ويبدأ في الغزل على طريقة جدته، بالتأني ذاته.. بالصبر ذاته، والمتعة ذاتها.

صبر ينتفي بمجرد أن يدخل الشغف مرحلة الخسوف.

ليتني أعلم ما الذي يعجل باحتضار الشغف؟

أهي معاشرتي لمن أحب ما يجعل عنصر الغموض في العلاقة يرحل تاركا وضوحا لا يطاق؟

قد يكون لورد بايرون على حق حين يقول بأنه:

«من الأسهل أن نموت من أجل امرأة نحبها.. على أن نعيش معها».

13

بعد تفكير مليّ وكثير من التردد، قررت أمينة أن تذهب إلى مكتب عمر.

ثمة شيء بداخلها يستبِقها كالخوف من أن تعجز عن استيعاب أمور الشغل، وقد انقطعت عنه لسنوات.

كيف يمكنها أن تدبّر أمور العمال بالمطبعة؟ أمور دار النشر؟ وأن تتعامل مع نرجسية الكتاب، مع جنونهم وتقلباتهم المزاجية؟

وفي الوقت نفسه، لا يمكنها أن تترك كل ما بنته مع زوجها ينهار هكذا، وهي لا تعلم إن كان سيعود يوما إلى الحياة أم لا. ثم إن انغماسها في العمل سيبعدها عن التفكير في أمور لا تزيدها إلا غما وكآبة.

إلى متى ستهرب من مسؤولية لا خيار لها في تحملها. ثم إن مستوى المعيشة الذي تعودت عليه هي والأولاد يتطلب نفقات كثيرة؟

استقبلتها السكرتيرة الخاصة بالدموع، متمنية لرئيسها

الشفاء العاجل، والعودة إلى مكتبه الذي أصبح لا يطاق من دونه.

ثم أتى جمع من العمّال والمستخدمين للسلام عليها والاستفسار عن الحالة الصحية لرئيسهم.

بعد مجاملات لا بد منها، انصرف الجميع، وجلست هي على كرسي مكتب زوجها.

ثمة شيء يشبه الحماس يخترق جسدها.

سوف تبدأ بالاطلاع على القضايا المستعجلة. ثم تعلن عن اجتماع مع رؤساء الأقسام لتبدأ صفحة جديدة، تبدأها كما لو كان قد مات والسلام.

سوف تستعين بالمحامي لتعيين مدير عام لدار النشر وآخر للمطبعة. وتحتفظ هي بمنصب الرئاسة، فهي ليست أقل ذكاء من زوجها. ألم تكن في بداية حياتهما العملية صاحبة الأفكار النيرة كما كان يعترف هو نفسه بذلك؟

تجيل ببصرها في أرجاء المكتب وكأنها تراه لأول مرة، أشياء كثيرة تغيرت فيه، انتبهت إلى أن هناك ستارة زائدة. . لا تذكر أن للغرفة نافذتين.

نهضت في فضول، أزاحت الستارة فإذا به باب خشبي. هي متأكدة من عدم وجود باب آخر للمكتب غير الذي تعرفه ودخلت منه.

حاولت فتحه لكنه كان مقفلاً بإحكام. نادت على السكرتيرة، سألتها عن مفتاح الباب، أجابت في ارتباك شديد:

- إنه مع الأستاذ عمر.

بحثت أمينة في درج المكتب، وإذا بها تعثر على مجموعة من المفاتيح. أخذت تجربها واحدا واحدا إلى أن وقعت على المفتاح المناسب. فتحت الباب لتجد أمامها سلما. إنه ليس بسلم النجدة الخاص بالعمارة.

صعدت السلم الذي أفضى بها إلى باب آخر. جربت المفاتيح التي بحوزتها من جديد إلى أن فُتح الباب وقد ارتفعت دقات قلبها.

وجدت نفسها داخل مطبخ مجهز يؤدي إلى صالة، فيها أرائك مريحة وطاولة فوقها كؤوس متسخة، وفيها كونتوار على الطريقة الأمريكية صفت وراءه كل أنواع الكؤوس والمشروبات الكحولية. شاشة تلفاز كبيرة تؤثث الصالة ومسجل موسيقى.

على يمين الكونتوار، باب يفضي إلى غرفة نوم بسرير عريض ومكتب صغير ودولاب. فتحت الدولاب بيد رعشى لتجد بعض الثياب الداخلية النسائية. البطانيات مبعثرة فوق السرير كأن أحدا غادره لتوه. تفضي غرفة النوم مباشرة إلى الحمام، مناشف ملقاة على أرضيته.

عادت أمينة إلى غرفة النوم لتنهار فوق السرير.
سؤال يكاد يخنقها: لمن هذه الشقة؟
وجواب يخنقها أكثر ببداهته: إنها طبعا لزوجها وإلا لماذا هذا الاتصال المباشر بالمكتب؟
كيف لم تعرف بوجود هذه الشقة؟ هي التي تعرف كل عشيقاته وكل تنقلاته وأسفاره. طبعا، لأن الجواسيس الذين تكلفهم بالسير وراءه ما إن يصل إلى العمارة حتى يخبروها بأنه قد وصل إلى مقر عمله. فترتاح هي مؤمنة بقدسية العمل لدى زوجها.

أحست إلى أي درجة كانت بعيدة عن عالمه، وفهمت سر الشغل المتأخر ليلا. كثيرا ما كان يشتغل أيام السبت والأحد والأعياد. تكلمه على رقمه المباشر بالمكتب فيجيبها. استدركت أن بجانب السرير على المنضدة جهاز هاتف ثابت. بحركة عصبية أخرجت هاتفها النقال وضغطت على رقم المكتب المباشر وإذا بالهاتف المجاور للسرير يرن. قطعت الخط بسرعة ويدها ترتعش.
يا لغبائها!
طبعا كان بإمكانه أن يرد على مكالمتها وهو ممدد على الفراش بجانب إحدى عشيقاته.
وهي مع أمه والأولاد حاملين همه.. المسكين يكاد يقتل نفسه لفرط الشغل.. فعلا لقد كاد يقتل نفسه!

من كان على علم بوجود هذه «الجارصونيير» غير عشيقاته؟

مَن مِن أصدقائه كان يستعملها لحسابه؟

وهذه السكرتيرة الجميلة هل سبق لها أن جربت الساعات الإضافية بالشقة؟

يا لغبائها!

كم أعطت من مالها وأعصابها حتى تعرف كل شيء عنه، متفادية هذا النوع من المفاجآت. .

مؤمنة بأن معرفتها بالأشياء كفيلة بجعلها تتقبلها وتعتاد عليها.

صباح معها حق، أكبر غلطة اقترفتها في حياتها كانت انفصالها عن العمل.

لم تكن تدرك أن من أفضال العمل على الإنسان منحه حجة لمغادرة البيت متى أراد. . للسفر حيثما أراد. . منحه جوازا لممارسة حريته. . فضاء لممارسة علاقاته السرية بكل سرية.

وبينما هي غارقة في خيبتها، محاولة ربط الأمور ببعضها وفهم ما كان يجري من وراء ظهرها، يرن جرس داخل الشقة.

شلت قواها. من يكون يا ترى هذا الزائر أو الزائرة؟

«تنهض مرتعشة الأطراف، تفتح الباب الرئيسي، لا تجد أحدا بالباب، تعود إلى الداخل، يرن الجرس من جديد، تقفل باب الشقة الخلفي وتنزل السلم مهرولة نحو المكتب.

تستقبلها الكاتبة قائلة:

- أعتذر سيدتي إن كنت قد أزعجتك بالجرس لكن الأستاذ المحامي بانتظارك.

- أين زر الجرس؟

- إنه على يمينك تحت درج المكتب.

أغلقت أمينة الباب السري، أحكمت عليه شد الستارة واستقبلت المحامي.

كان أول ما طلبته منه هو أن يجهز أوراق فصل السكرتيرة عن العمل.

حاول أن يقنعها بالاستفادة من خبرتها. لكنها ردت حاسمة:

- بداية جديدة تتطلب أناسا جددا.

وهي تقول في نفسها:

«هناك أسرار لا نحتمل مشاركتها مع أحد».

14

«عندما تجد نفسكَ في القمة، وأنت ما نزفتَ عرقا، ولا عرفت الآمال ولا الآلام في الطريق لتسلّق القمّة، وكأن صاروخا قذف بك من حيث لا تدري.. فأنت، طبعا، تجهل كل ما خَبِرَه غيرك أثناء تسلقهم. تجهل كل الأحاسيس التي راودتهم أثناء مغامرتهم: من خوف وترقب وقلق.. وأرق مصاحب للصعود..

وكيف نضجوا مع كل عثرة وكبروا بعد كل سقوط.

عندما تجد نفسك، كما بعصا سحرية، متربّع على القمة بكل هشاشتك وعدم خبرتك، فلن يزيدك إعجاب الناس إلا هشاشة وأنت المدين لهم، وهم يعلمون أنهم كما نصّبوك بإمكانهم أن يطرحوك أرضا.

فكيف تحافظ بعد هذا على نفسك وتحصّنها؟

في جهل هذه البديهة تكمن مأساة نجوم «الكوكوت مينوت» ضحايا زمن الاستهلاك الذي يعجل بأفولهم قبل أن يسطع نجمهم بحق..

إذ من موقع القمة، يبدأ مسلسل التنازلات خوفا من النزول.

هكذا كانت شروق ضحية الأضواء التي سلبتها ترف أن تشرق في وقتها».

طرقت فطومة باب المكتب برفق.
رفع ادريس رأسه عن دفتره وأذن لها بالدخول.
- جئت أسألك إن كنت تحتاج شيئا وأستأذنك في الخروج، سأستلم اليوم جواز السفر.
- طبعا، طبعا بالتوفيق.

قال بعجالة قبل أن ينهمك من جديد ممسكا بخيط أفكاره:

«تعرفت عليها في سهرة عند أحد الأصدقاء الذي قدمها كنجمة الجيل الجديد. وكان الجيل القديم عند أقدام شبابها وجمالها.. كل طامع في شيء ما: جاه أو مال أو احتكاك بجسدها البض.
لم أشكل استثناء، فالنجوم مثل المغناطيس..
هكذا كانت وحتى وإن كان صوتها لا يطرب.

دخلت مثل بطل يدخل حلبة الصراع، وكانت الكلمات سلاحي.. جُمَلٌ لا يحسن صياغتها سواي.. أصوِّبها بدون رحمة نحو سذاجتها.

سألتني برقة قاتلة:

- ماذا تكتب الآن؟

أجبت بتعال:

- رواية جديدة بطلتها نجمة من نجوم الأغنية العربية.

بالطبع، تعمّدت الكذب لأخلق لديها الرغبة في أن تكون تلك البطلة المزعومة..

يعجبني أحيانا أن أستغل سلطة الكتابة.

وقبل نهاية السهرة طلبت مني أن أكتب كلمات لألبومها الأول.

وهكذا شرّفتْ في عش الحب، لتطرد منه زينة، وتحرمني من عطاء لم يكن من شِيَمها.

قضينا فترة عسل قصيرة. الكتابة معها ليست شيئا هينا، فقد كانت لها طقوسها الخاصة.

تحتاج أن تنام على صدري لساعة على الأقل - وقد كنت أحسب أن الرجال يختصون بظاهرة النوم بعد الجنس - وعندما شرحت لها أنني أكتب بعد ممارسة الحب، بكت في

البداية كطفلة مدللة، ثم غضبت، وقد كانت شديدة الغضب، ثم أصرت على قراءة ما أكتب. .ثم. . غلبتني وأتعبت أعصابي.

كانت تكتسح الفضاء ولا ترضى بأقل من مركز الكون. . ولم أكن أقل نرجسية منها.

تباعدت مصالحنا: هي تنتظر مني أن أكتب كلمات لأغانيها وأجعل منها بطلة روايتي، و. . وأعيش من أجلها.

وأنا لي قلمان ينتظران أن أتفرغ لهما. . وقد أضعت وقتا ثمينا في سهرات عامة أصبحت مدمنا عليها.

قررت أن أتفرغ ولم يكن أمامي إلا حل واحد.

«لا أحد يتخلى عن النجمة شروق».

هكذا صرخت، وقد نزل قراري بالانفصال كمقصلة على كبريائها.

أمسكتْ بكأس، وهي في أوج نوبة هستيرية، حطّمتها، وقطعت في رمشة عين عروق معصمها قبل أن تهوي على الأرض فاقدة الوعي عند رؤية طفرة الدم.

ربطتُ معصمها وقواي تكاد تنهار أمام المشهد الدرامي، ثم اتصلتُ بعمر الذي حضر لتوه ونقلَنا إلى صديق طبيب يثق في كفاءته وقدرته على حفظ الأسرار. ولملم الموضوع مقنعا إياها بأن أدنى فضيحة قد تقتل مستقبلها الفني.

هكذا كادت علاقتي بالنجمة شروق تنقلب إلى مصيبة عظمى.

عدت إلى عاداتي سالما، واستأنفت هي مشوارها الفني واستقرت في القاهرة لتحقق طموحها في أن تصبح نجمة عربية.

بعد ثلاث سنوات من انفصالنا أقدمت على محاولة انتحار تكللت هذه المرة، مع الأسف، بالنجاح.

أكان السبب تركيبتها الهشة؟ أم أنها الشهرة تضعف من هو غير محصن نفسانيا بتوازن قد يحققه الحب أو الدفء الأسري؟

أم ربما كانت ضحية مصاصي الدماء، الذين يتهافتون على بصيص بريق نجوم محتملة، معجِّلين بأفولهم؟

من الممكن جدا أن يكون السبب تراكم كل هذه الأسباب.

قد تتساءلون لماذا أحدِّثكم عن شروق وهي لم تكن من ملهماتي، بمعنى أنني لم أكتب خلال علاقتي بها شيئا يذكر؟

أحيانا يأتي الإلهام متأخرا، كموعد مؤجل، أو كدواء يسرِّب مفعوله بعد حين.

انتحار شروق أوحى إلي برواية «حكاية نجمة» بطلتها

نجمة للأغنية العربية، تماما كما وعدتها بنيّة كاذبة..
انتصرتْ وجعلتني أحقق أمنيتها بعد موتها.
وانتصرتُ على عقم لحظة.. بعد سنين.
كانت الموديل الذي رسمته من ذاكرتي بعد وفاتها. ولقد برعت في نحت شخصيتها مستعملا سيرتها الحقيقية وخيالي الجامح.

لقيت الرواية نجاحا كبيرا، كما تعلمون، كما تمّ اقتباسها لفيلم سينمائي».

طوى الأستاذ إدريس دفتره وتوجّه نحو الصالون، أخرج شريط أغاني شروق، شغّله، ثم استلقى أرضا على ظهره فوق السجادة..
ترك صوتها يتسرب إليه كما يتسرب الماء داخل اسفنجة جافة..
وهو يعجب من تصرفه ويقول مع نفسه:

«أكان لزاما أن تنتحر شروق حتى أطربَ لصوتها؟»

15

عادت فطومة، تكاد تطير من الفرح وبيدها جواز سفر عليه ختم تأشيرة العبور إلى الديار المقدسة.

دخلت غرفتها، أخرجت صندوقا صغيرا من تحت السرير به كومة أوراق نقدية. جلست فوق السرير وأخذت تعدها الواحدة تلو الأخرى، وضعتها في كيس من البلاستيك الأسود، أطبقته على شفتيها، في شبه قبلة، ثم على جبينها في شكر وامتنان. وبينما هي تدسّه في الصندوق توقف نظرها على جواز سفر قديم منزو في قعره. سحبته بأنامل مرتعشة.. فتحته.. صورتها وهي في عنفوان شبابها وابتسامة ترصع الوجه المضيء. قارنتها بالصورة الحالية في جواز السفر الجديد..

صورتان يفصل بينهما عُمْرٌ وخيبات.

جمّدت أطرافها وهي تمسك بالجوازَيْن كل منهما بيد، بينما يحاول فكرها تأثيث المسافة بينهما فيعود بها كشريط سينمائي يبث بالأبيض والأسود أحداث قصتها:

تراءت لها، كما في حلم بعيد، قريتها.
قرية «إيمسوان» الساحلية، وهي تتربع بين مدينتي الصويرة وأكادير، ببحرها الصاخب ومينائها التقليدي الصغير وصياديها البسطاء الطيبين.

فتاة مرحة تلاحق الماعز بين أشجار الأركان على الهضاب وتنزل السفح لتجلب السمك من مركب والدها، وهي تراقب في خجل ابن عمها الحسين. أجل، كانت تحب الحياة وابن عمها الحسين الذي كان يبادلها الإحساس نفسه.
لكن طموح الحسين، الذي ثابر مستمراً في الدراسة لغاية السنة الثالثة من الثانوي، كان أكبر من أن يقنع بوضعية صياد للسمك.
كانت نظراته تعبر المحيط لتأخذه إلى الضفة الأخرى حيث الأحلام تتحقق، والآفاق بشساعة البحر.
قرر أن يهاجر طامحا في عيش أرغد وحياة كريمة. فكل أقرانه الذين حالفهم الحظ في الهجرة إلى أوروبا يعودون سنويا بسيارات جديدة وهدايا، ومنهم من بنى بيتا لعائلته.
لم يمانع الأهل، بل ساعدوه بما لديهم وأعلنوا عن خطبته لفطومة وقرأوا الفاتحة مؤجلين عقد القران لعطلة صيفية قادمة، في انتظار أن يجد الحسين عملا
ويستقر هناك.
بكت فطومة بحرارة وهو يعدها بلقاء قريب، يقيم فيه حفل الزفاف، ويصطحبها معه إلى هولندا.

رحل الحسين.. وكان في البداية يبعث برسائل محمومة يضمنها أشواقه وحنينه. لم تتسنّ له العودة خلال العطلة الصيفية الأولى لأن وضعيته القانونية لم تكن قد سويت بعد.

ثم جاءت العطلة الصيفية الثانية ولم يأت. وبدأت وتيرة الرسائل تضعف، وتضعف.. إلى أن توقفت بشكل نهائي.

وفطومة تمني النفس باللقاء وتنتظر.

مر عامان.. ثم أربعة.. ثم ستة.. ثم ثمانية.. دون أن يتصل الحسين بفطومة أو بأسرته ودون أن يعرف أحد خبرا عنه.

وبعد ثماني سنوات من الانتظار، خزّنت خلالها كل أنواع اليأس.. حتى نحل جسمها واختفت ضحكتها واستحالت شبحا لا يبرح صخرة على البحر، اهتدت إلى قرار حاسم، لم يستطع أحد إقناعها بالتخلي عنه:

أن ترحل إلى المدينة لتبحث عن شغل و تقتني جواز سفر.

أجل، أصبح هاجسها السفر إليه.. إلى هولندا. إنه حبيبها وفي منزلة زوجها، فقراءة الفاتحة بمثابة عقد قران في عرف القرية. ثم إن تسرب خبر زواجه من هولندية واستقراره هناك دفعها للحسم أكثر. لا يمكنها أن تعيش هكذا في غموض تام لا بد أن تعلم ما تنطوي عليه نواياه.

ولو كان فعلا قد تزوج، فهي تحتاج إلى مواجهته قبل أن تطوي الصفحة بصفة نهائية..

ثم، هناك في أعماق قلبها صدى صوت يردد: ربما هو في ورطة ربما هو مريض ربما.. و«الغايَبْ حَجْتُه مْعَاه».

بدأت الشغل كخادمة بمدينة أكادير لتنتقل بعد سنتين مع إحدى صديقاتها إلى الدار البيضاء، حيث فرص العمل متوفرة وإمكانات الحصول على جواز السفر أكبر. وبعد عناء طويل ومقابل مال وفير، تعبت في جمعه، حصلت أخيرا على جواز السفر.

لزمتها سنة إضافية للحصول على التأشيرة، وقد ساعدتها في ذلك صديقة لها معارف بهولندا بعثوا لها برخصة إقامة بروتردام.

وأخيرا، سافرت فطومة، واستقبلها أصدقاء صديقتها، وبدأ مسلسل البحث عن غائب.

علمت من بعض أفراد الجالية المغربية بأنه متزوج من امرأة هولندية، تكبره سنا بكثير، تملك مقهى وسط المدينة، يشرف هو على سير العمل فيه. وأن له طفلين.

قضت ليلة بيضاء، تفكر فيم يمكنها أن تفعل. تعلم أن عليها أن تراه.. تحتاج أن تراه.

طلبت من عم صديقتها السيد إبراهيم أن يصطحبها إلى المقهى وكانت ترتدي نظارة سوداء، حتى لا يتعرف عليها الحسين. وشيء بداخلها يتمنى أن يتعرف عليها.

دخلت المقهى بصحبة السيد إبراهيم ورعشة تسري في

أطرافها. اتخذا لهما مكانا منزويا مقابلا للكونتوار. لم يكن الحسين موجودا، هناك فقط امرأة هولندية تجلس أمام الآلة الحاسبة. طلبا قهوة من النادل وما هي إلا لحظات حتى توقفت سيارة كبيرة أمام المقهى. نزل منها رجل أنيق، إنه هو. زادته السنون هيبة ووسامة.

دخل بكل ثقة، مر من أمام طاولتها، ارتبكت بشدة، فسقط فنجان القهوة أرضا وتناثرت شظاياه. اعتذر إبراهيم بصوت عال. التفت الحسين تجاههما وأمر النادل بتغيير الفنجان وهو يرطن بالهولندية - ما ترجمه لها ابراهيم - «لا بأس، هذا شيء وارد، الفنجان الثاني على حساب المقهى».

انسلّ وراء الكونتوار ليقبل شفاه المرأة التي هي زوجته بدون شك، ويأخذ مكانها، بينما تغادر هي وتستقل سيارته.

جمدت فطومة وهي تنظر إلى الحسين، أزاحت عن عينيها النظارة السوداء، تعمدت الكلام بالدارجة المغربية، علها تثير شكه أو فضوله لكنه بالتأكيد لم يعرفها. بل بدا إنسانا آخر لا تعرفه هي أيضا، إنسانا يتكلم لغة أخرى وله زوجة أخرى.. حياة أخرى.

لقد ذهب أبعد من الأفق الذي كانا يرنوان إليه.

تبادلت هي والسيد إبراهيم نظرات تحمل ما يكفي من كلام، لينصرفا مقتنعين بانعدام الفائدة في أي محاولة من أي نوع.

رجعت فطومة إلى بلدها بعد إقفال باب قبل فتحه.
لتقفل كل الأبواب التي انفتحت لها بعده، وقد فقدت الثقة في الحب وفي الرجال،
وتقضي سنوات عمرها تشتغل بالدار البيضاء، إلى أن تعرفت على هناء والأستاذ إدريس وأصبحت فردا من أسرتهما.

انتهى الشريط. وكانت فطومة كمن شاهد فيلما مؤلما.. فيعجز بعد عودة الضوء عن مغادرة صالة السينما.
مازالت تمسك بالجوازين. وألم في الركبتين يعلن أنها: شاخت بين جواز سفر وآخر.

16

فتح الأستاذ إدريس الكمبيوتر، الذي يكاد يقتصر تعامله معه على استعمال البريد الالكتروني، فإذا به يجد رسالة تحمل دعوة للمشاركة في ندوة بمكتبة الإسكندرية حول موضوع «آفاق الرواية».

في السابق، كانت دعوة كهاته تملأه فرحا وزهوا ولا يتردد في قبولها.

لم يكن أبدا موضوع الندوات هو المحفز الحقيقي وإنما السفر في حد ذاته.

فقد دخل منذ أمد مرحلة محاولة التحرر من كل ما تلقَّنه من آخرين، من كل النظريات.. عله يأتي بشيء جديد.. عله يزحزح بعض الثوابت التي قضى سنوات في تدريسها بدوره لطلبته بالجامعة.

«تمضي نصف عمرك في دراسة أشياء.. وتمضي النصف الآخر في نسيانها لتصبح مبدعا حقيقيا». كما قال أحدهم.

وحده السفر واكتشاف العالم يدفعه للمشاركة في ندوات، يعلم مسبقا أنها لن تضيف له الكثير ككاتب، إقتناعا منه بإن اللقاءات بالكتاب قليلا ما تنطوي على علاقات حقيقية تتحول إلى صداقات. فنادرا ما يقرأ الكتاب لبعضهم البعض. على ما قال موريس شبلان:

«الكاتب لا يقرأ لزملائه.. إنه يراقبهم».

ثم إن علاقته بعمر تغنيه عن كل الكتاب.

فكر مع نفسه بشيء من الحنين أن الرحيل، هذا المفعم بالمجهول، كثيرا ما يغدق عليه بصدف تستحيل مواعيد تغذي لأمد خياله وإبداعه.

لكن ما عسى السفر يمنح من هو في مثل وضعيته؟

وحتى لو أراد الموافقة، فإن الظرف غير ملائم بسبب حالة عمر الصحية.

رد على الدعوة معتذرا بكل أدب عن الحضور. ثم أقفل الكمبيوتر ليعود إلى مسودته:

«صادفتُه صبيحة يوم أحد..

كان يمارس رياضة العدو على الكورنيش وهو يلهث.

لم يكن أبدا - كمعظم الشعراء- رياضيا، ولا محبا للرياضة.

قلت مع نفسي:

«إما أنه قد أصيب بمرض السكري أو ارتفاع الضغط

الدموي، وهو بهذا يطبق أوامر الطبيب. أو أنه متيم بامرأة تصغره سنا، وهو بهذا يطبق أوامر الحب».

توقف أمامي، استرد أنفاسه وهو يقول:

- أهلا بكاتبنا الناجح.. صدقني كنت أنوي الاتصال بك.. عندي قراءة شعرية الأسبوع المقبل ويهمني حضورك.. ثم عندي لك مفاجأة.

سألت بفضول من يريد أن يعرف أخبار من عاشرهم يوما:

- وكيف حال زوجتك؟

أجاب بنبرة اللا مبالاة:

- انفصلنا..

ثم أضاف وهو يلاحظ تساؤلا بعينيّ:

- ليس علينا أن نظل أسرى لقرارات اتخذناها في زمن الطيش.

- طبعا.. طبعا.

كان العرق يتصبب منه. الواضح أنه لم يعد قادرا على تحمل مجهود بدني من هذا النوع.

ولا أنا قادر على تحمل ذكريات تعيدني إلى زمن كنت فيه على علاقة بزوجته ثريا. لم يكن على علم بهذه العلاقة التي انتهت منذ سنوات.

كنت صديقها الذي تحكي له عن غرور زوجها وأنانيته، ولم تكن تشك في أن أنانيتي أكبر وأعظم.

كان من صنف الشعراء المغرورين، يحتقر الشعر والشعراء، يؤمن بأنه أكبر من الشعر وأنه حين يكتب يتنازل وينزل إلى مصاف البشر. فهذه لغتهم العظمى، وبما أنه لا توجد لغة تعبّر عنه وعن موهبته الفذة، فهو يخدم البشرية بقصائد في متناولها.

كانت ثريا تظن أن بإمكانها ترويض شاعر كما تروض العجين.

وعندما يئست منه، انتقلت إلى ترويض أصدقائه بلطفها وبراعتها في تنظيم الحفلات.

يرجع لها الفضل في جعل اسمه يبرق في سماء الشعر نتيجة إتقانها للماركتينغ الثقافي. فقد جعلت من بيتها صالونا للأدب والأدباء، تستدعي الصحافيين والفنانين وتنظم أمسيات شعرية.

تعرفتُ عليها في إحدى الأمسيات ببيتها، وكانت مثال ربة البيت الراقية.

ما إن تجلس إليها حتى تحسسك بأهميتك، وبأنها قرأت كل ما كتبتَ وما تنوي كتابته.

وبأنك الأحسن والأوسم.. وسيدهم.

بدأت أتردد على صالونها في حضور زوجها في البداية. . ثم في غيابه.

كانت تسعد كلما كتبت شيئا بعد مضاجعتها. ربما كانت تجد في هذا شيئا من رد الاعتبار. لأنها لم تنجح في إلهام زوجها ولو بقصيدة واحدة.

قالت لي يوما:

«يبدو أن الله قد خلقه ليقوم بمهمة جمعنا. . وكفاه بعد ذلك إبداعا».

كنت أنا أنبه منه. كتبت خلال السنتين اللتين قضيتهما بصحبتها روايتي الأولى. فقبلها، كنت أحترف القصة القصيرة، ربما لأن علاقاتي لم تكن تستمر لتطال نفَس الرواية. لهذا أحس بامتنان لثريا بصفتها فاتحة الرواية كما كانت هناء فاتحة القصة.

ها هما قد انفصلا وبدأ هو الركض وراء عُمْرٍ هارب.

أما هي فلا خوف عليها، لابد أن آخرين يركضون خلفها.

بعد مضي أسبوع بالتمام، ذهبت إلى موعد القراءة الشعرية.

كان يقف في زهو بباب المركب الثقافي ومعه شابة في مقتبل العمر، جميلة، يمسك بيدها ويقدمها بكل فخر للجميع. إنها زوجته الجديدة.

المشكلة يا أعزائي، أن هذه الفتاة التي تدعى زعيمة، كانت طالبة عندي بكلية الآداب وحاولتُ إقناعها بأن الأدب يوجد في الكتب لا في الاحتكاك بالكتّاب، وأصرت على الاحتكاك، وكذلك كان.

علاقتي بها كانت من العلاقات العقيمة التي لم تولد شيئا على الإطلاق. خاصة وأنها كانت تبحث عن كاتب للزواج. وكنت أبحث عن قصص بدون زواج.
من قال إن الزواج قسمة ونصيب؟ بل إنه الإرادة أولا.

كانت شعبية الشاعر قد جلبت العديد من الطالبات والفتيات، حيث تشكل نسبة الإناث في قاعة المركب الثقافي ضعف نسبة الذكور.

كنت أحسبه أكثر ذكاء من أن يحد من حرية الشاعر بداخله باستدعاء زوجته، الجديدة، لأمسيته الشعرية. مع أنه كان من المقتنعين بنظرية عمر في الموضوع والتي تنص على ما يلي:

«على الشاعر ألا يصطحب معه زوجته لقراءاته الشعرية حفظا لكرامتها، وحفظا لحريته في إغواء المعجبات، اللواتي كابدن عناء الطريق، للإمساك بحلم نثره في قصائده. فهو في

اعتقادهن، لا يمكن أن يكون متزوجا، لأنه يجسّد الحلم الرومانسي لديهن. معرفتهن بحقيقة زواجه تقلل من شعبيته وتصيبهن بالخيبة.

أما زوجته فهي تحاول جاهدة أن تجد في القصيدة عبير عطرها، لكن القصيدة - مع أنه يحاول جاهدا هو الآخر أن يكون عند حسن ظن زوجته- تفوح بعبير الحلم والخيانات الضرورية».

«المرأة التي لا تعاتبك هي المرأة التي لم تعد تحبك»

كان يقول في عهد ثريا.

أما وهو في عهد زعيمة، كم يلزمه من العتاب حتى يثق بحبها؟

آه نسيت أن أخبركم، بأن زعيمة قالت حين قدمنا زوجها لبعضنا - وهي تصافحني بكل احترام - بأنني كنت أستاذا لها.

من يجرؤ منكم أن ينسب هذا الموقف للكذب؟

انتهت القراءة ودعا شاعرنا الكبير إلى العشاء ببيته، بعض الأصدقاء وكنت من بينهم.

سألته:

- هل تحتفظ بالبيت نفسه؟

أجاب بزهو من يرتدي بذلة جديدة:

- لا، إنه الآن لثريا، أنا أعيش بشقة في شارع الزرقطوني.

لا أدري لماذا اعتذرت عن العشاء..

ربما وفاء لروايتي الأولى.»

17

كان الوقت ليلاً حين غادرت أمينة مقر «منشورات مرايا»، يملأها الحنق على عمر. اتجهت مباشرة إلى المصحة بخطى من لديه حساب يود تصفيته في أقرب الآجال.

لم تستطع الجلوس كعادتها قبالة زوجها الصامت. شرعت في الكلام وهي تحرث الغرفة في حركة دائبة:

«عدت لتوي من مكتبك حيث اكتشفت جسامة غبائي..

بعد ثلاثين سنة من العشرة أكتشف أن لك شقة سرية.. عشا للحب. وقد كنت أظنني على علم بكل أسرارك.

بما أنك تحب قصص الحب، سأروي لك واحدة قد تمتعك، كما استمتعت أنا بعيشها، لتدرك أخيرا أن لا أحد يعيش من دون أسرار.

منذ خمس سنوات، كنتَ قد سافرتَ إلى معرض الكتاب بفرانكفوردت، وكنتُ أعلم أنك قد اصطحبت معك الكاتبة الشابة المتسلقة سارة بن شقرون.

وفي ذلك المساء، وأنا أحاول ترويض ذاكرة والدتك على التذكر وترويض ذاكرتي على النسيان، جاءت صباح لتدعوني إلى معرض للصور الفوتوغرافية ينظمه معهد سيرفانتيس، لفنان فلسطيني مقيم بالنرويج، سبق لها أن تعرفت عليه في أحد المعارض الجماعية بباريس. وهي سعيدة إذ طلبت منها قناة تلفزية خاصة أن تشرف على تغطية الحدث.

لم تكن لي رغبة في التواصل مع أحد، لكن إلحاح صباح كفيل بإقناع الموتى بالخروج من قبورهم.

كان المعرض رائعا، يضم صورا بالأبيض والأسود، لأطفال فلسطينيين وسط الدمار. لم تكن صورا تستعرض القضية، ولا الغرض منها صدم المتلقي أو استجرار شفقته. كانت فنا راقيا قبل كل شيء، يلتقط انفعالات الطفولة، ابتساماتها، لعبها، تلقائيتها، أحلامها، وسط دمار تحس بأنه لن يمنعها من العيش.

تكاد تسمع ضحك الصغار يملأ الفضاء بصخب جميل نكاية في بشاعة الحرب وقبح الكبار.. صور تنضح بالأمل والكبرياء.

كانت صباح تعطي توجيهاتها «للكاميرا مان» وأنا أتنقل بين نوافذ على حكايات الطفولة المهدورة، كل طفل حكاية،

استطاعت عدسة الفنان أن تسردها بصدق من خبر وجع الحكاية.

بعد لحظة، أجلت بصري في صالة العرض وقد اجتاحني شعور بالشجن، فلمحته قبالتي وراء كاميرا صباح وهي تحاوره.

أول ما يشدك إليه عيناه. عينان بسعة العالم.. تأكل الوجه حيث لا ترى في محياه سواهما.

تحمل نظراته كل توتر الكون.. وطاقة التحدي تكاد تنفجر منها.

وأنا أرقبه التقطتُ فجأة رعشة خفيفة تعبر نظرته وهو يتحدث عن طفولته برام الله، رعشة تشي بخوف دفين، بهشاشة الكائن الطفل فيه، تزيده قوة.. وتجعلك ضعيفا أمامه.

لم أستطع كبح نفسي من تتبع حديثهما خلسة، وقد كانت المسافة بيننا تسمح بذلك.

صباح تطرح أسئلتها وأنا أشرب أجوبته، التي بالتأكيد كانت ستعجبك.

وبما أنك فنان الحياة بشهادة الجميع.. وعاشق الكلام الذكي.. سوف أسردها عليك كما سمعتها:

قال: «بدأت علاقتي بالعدسة منذ الطفولة. كنت أحمل كاميرا أبي وكانت عبارة عن صندوق أسود. كنت أتخيل أن

بداخلها فريقا من الأذكياء.. أنظر من خلال ثقب فيها فأجد العتمة وهذا ما يزيد من سحرها.. هي إذن مركز العالم.. إنني مع العدسة منذ زمن قطعة واحدة.»

وقال: «لا أنتظر، أساسا، من الصورة توقف الزمن. فتوقف الزمن فكرة تقليدية، لأنها بديهية. الأهم من توقف الزمن حسبانه.. أي أن اللحظة المرئية تأتي بغموض ووضوح معا، على صعيد تسجيل لحظة لن تعود.»

ثم قال: «عمّ أبحث؟ أبحث عن العراء أولا، ثم العنصر الطائر في الفراغ ثانيا.»

وعندما طلبت منه صباح أن يفسر أكثر. رد بأن «الفن لا يُفسَّر».

هكذا أسرني، قبل أن تقوم صباح بمراسيم تقديمنا لبعضنا قائلة بنبرتها المازحة:

- أقدم إليك أعز صديقة، أمينة، وهي ناشرة متقاعدة.

واتجهت نحوي:

- أقدم إليك صبري صديق عزيز وفنان محكوم بالدهشة المؤبدة.

تمتمنا معا:

- تشرفنا.

ونحن نصافح بعضنا، وأنا أهرب من نظرته الثاقبة.

تدخلت صباح موضحة:

- سوف تتعرفان على بعضكما أكثر خلال العشاء، فأنتما مدعوان عندي بالبيت بعد حفل الافتتاح.

حاولت أن أعتذر، لكنها قمعت محاولتي قائلة.

- لن أقبل أي عذر من أي منكما.

وتركتنا لتعود إلى «الكاميرا مان».

أحسست بأنه من اللائق أن أقول شيئا حول المعرض، أن أهنئه. أحس بترددي فبادر هو بالكلام:

- أتمنى أن يكون المعرض قد راقك.

تلعثمتُ، واحمرّت وجنتاي، كتلميذة طُلب منها أن تدلي برأي أمام الفصل. وأنا أقول:

- طبعا، طبعا، إنه رائع وأهنئك على ذوقك وعلى صدقك.. و.. و قدرتك على التقاط الانفعالات الحقيقية.

ابتسم، وشكرني قبل أن يلتفت إلى أحد المدعوين الذي تقدم نحوه مصافحا.

مر العشاء ببيت صباح كفرح جميل.

كان صديقها سباستيان موجودا، بل هو من أعد الأكل على الطريقة الفرنسية.

صبري كريم في حركاته، في سكب أفكاره المعتقة في كأسك، كريم في إنصاته إليك لحد يجعلك أذكى. تصبح في حضرته بخفة فراشة.

كان لحضوره إفرازات بيولوجية تعبق في الجلسة برائحة تنعش العقل والحواس.

لمحتُ في نظرته مطاردة شبه حيوانية. يكاد يسيل اللعاب من عينيه وهو يتطلع إليّ. أحسه يتشمّمني من بعيد.. ثمة حركة خفيفة في أنفه تشبه انفراج الشفتين أمام طبق شهي. وقد مر دهر دون أن أشعر بأنني مشتهاة.

بعد العشاء، دعا سباستيان صباح لرقصة تانغو، مفتخرا أمامنا بكونه من علمها الرقص. وقد أبدعا، وصبري وأنا صامتان أمام جمالية الرقصة وكل الرومانسية والإيروسية المنبعثة من حركاتهما المنسجمة.

عند نهاية الرقصة، قبّل سيباستيان صباح قبلة على الشفاه خِلناها لن تنتهي.. وقد قطعت أنفاسنا.

توجه بعدها صبري نحوي سائلا برقة:

- هل ترقصين؟

قلت في حرج:

- لم يسبق لي أن رقصت التانغو.

أردف مشجعا:

- ولا أنا، لنرقص رقصة في متناولنا.

وهكذا وجدتني بين أحضانه أتمايل على إيقاعات أغنية

«لابويم» لشارل أزنفور. التي اجتهد سيباستيان في إخراجها وتشغيلها بسرعة البرق.

هل كان حقا يضمني إليه أكثر من اللازم أم أن حساسيتي المفرطة ومفعول النبيذ الفرنسي جعلاني ألتهب بين يديه؟ أم أنها طريقته في النظر إلي؟

فجأة اجتاحني شعور برهبة، كمن استشعر خطرا وشيكا، جعلني أنهض وأستأذن في الانصراف.

همس صبري وهو يقبل يدي بتلقائية:

- أتمنى أن أراك ثانية.

استطردت صباح بثقة من خطط مسبقا:

- طبعا، فهي المكلَّفة بمهمة تعريفك على المدينة بحكم أنها العاطلة الوحيدة بين الأصدقاء.

قال بسرعة قبل أن يسمع ردي:

- وهذا من حسن حظي. فلدي رغبة في التقاط صور للمحيط، غدا صباحا، إن لم يكن لديك مانع.

أمرت صباح في حسم:

- مري عليه هنا إنه سيقيم بشقتي.

قبل أن تضيف في اتجاه سيباستيان:

- أظن لا مانع لديك من استضافتي عندك مدة إقامة صبري؟

أجابها سيباستيان بقبلة على يدها.

تمتمتُ:

- حسنا، حسنا، تصبحون على خير.

وغادرتُ شبه هاربة من شيء غير محدد بعد.»

بينما أمينة تحكي لعمر قصتها مع كامل التفاصيل، وتجد لذة شبه سادية في سرد أحاسيسها، لمحت شبه حركة من سبابته اليمنى.

خالتها في البداية من صنع خيالها. لكنها بعد فترة لمحت الحركة نفسها، فإذا بها تتوقف عن الكلام لتهرول منادية على الممرضة.

جاءت الممرضة وبعدها الطبيب الذي لم يلاحظ أدنى تغيير، وطلب منها الانصراف فالوقت قد تأخر وهي تحتاج إلى راحة.

18

المصحّة تغفو تحت الغيم، وأمينة تهطل على جمود عمر بما خزَّنت من أسرار:

«بالأمس تهيأ لي أنك فعلا تسمعني، وأنك قد حركت أحد أصابعك، لكن الطبيب أكد لي العكس.

لا يهم، إن كان باستطاعة حكايتي مع صبري أن تعيدك إلى الحياة فستكون مفارقة أخرى من مفارقات هذا الكون الغريبة.

أين توقفنا؟ آه.. تذكرت..

عدتُ إلى البيت شبه هاربة من نظرات تلتهمني.. نظرات أيقظت جوعي إلى شيء أعرفه ولا أعرفه. قضيت ليلتي في إعادة شريط اللقاء مستمتعة بأرق لذيذ، في انتظار صباح يعد بالدهشة.

وصلت بيت صباح بين تردد وإقدام، لأجده بانتظاري، وقد أعدّ لنا طاولة إفطار شهية.

ما اعتدت أن يعد لي رجل الإفطار.

أثنى على زينتي وعبَّر عن سعادته بدليل سياحي مثلي.
أنت تعلم بالتأكيد أنني أكاد لا آكل شيئا في الصباح، لكن ذاك الصباح، كانت شهيتي متفتحة على الحياة بكل لذاتها. وأقبلت على الطعام بنهم جعله يقول:
«أحب المرأة التي تأكل بشهية».
قضينا زهاء ساعة في حديث عذب قبل أن نتوجه إلى البحر.

كان صباحا مشمسا. اعتقدت أنه سيلتقط صورا للمحيط وما يحيط به من معالم المدينة، كما يفعل السياح، لكنه اقترح أن نتمشى على الرمال.

أخذ يصوّب عدسته على كل الأشياء التي لفظتها أحشاء البحر في لحظة استغناء.. أشياء قد تبدو للعين العادية تافهة، لكنه كان يتوقف عند كل منها كأنه يلتقط تاريخها أو ينصت إلى حكايتها: هذا مشط تكسرت أسنانه خلال رحلة ما، وهذه فردة حذاء فقدت لونها، وهذه قارورة أو ما تبقى منها، وهذه شظايا محارات، وهذه ثقوب تحدثها الرمال حين تمتص الماء مع كل جزر..
كل التفاصيل الصغيرة تستوقفه في تأمل قبل أن تخلَّد في ذاكرة آلة التصوير.

وفي لحظة، انتبه إلى تفاصيلي الخاصة: يداي تداعبان الرمل، قدماي الحافيتان المغروستان فيه، انعكاس الشمس على خصلات شعري المتطاير، خجلي خلف نظارتي الشمسية...

أحسست ساعتها بأنني جزء من الطبيعة أو حورية غادرت البحر إلى حين.

استمتعت باللعبة، ولا أدري كيف وجدتني ألقي بحذائي وحقيبة يدي ونظارتي الشمسية على الرمل، ثم أتقدم نحو الماء بخطى ثابتة وكأن شيئا خفيا يسيّرني. وهو يتبعني بعدسته.

بدأت أسبح، وأسبح. لم ينطق بكلمة، استمر بدون تعليق في التقاط حركاتي التلقائية، وهو بين فرح طفل ودهشة مبدع. إلى أن ارتويت وخرجت من الماء وفستاني ملتصق على جسدي.

تقدم نحوي بنظرة تخلع عني فستاني المبلل.. قبّل يدي متمتما بنبرة امتنان:

«كم أنت رائعة».

بعد هذا الانزياح الجميل، أصبح لزاما علينا أن نعود إلى بيت صباح حتى تجف ملابسي.

أخذت حماما وارتديت أحد فساتين صباح، بينما أعد هو وجبة خفيفة من طعام تركته صديقتنا بالثلاجة.

قضينا بقية اليوم معا بين حديث وأكل ونبيذ وموسيقى.
لم تكن لدينا رغبة في الخروج..
وكأن على العدسة أن تستريح.

من أين جاءتني كل هذه الثقة وكأنني أعرفه منذ زمن سحيق؟
لم أفكر لحظة فيك، ولا في ما أنت منهمك فيه.
كنت أتسلق سلالم من الصفاء والنشوة، وأنا أتابع ألبوم حياته التي لم تكن بالهينة، لكنها غنية كخراب جميل.
ربما تتساءل في نفسك ما همك أنتَ من حياته؟ لكنني مصرة على أن أحكي لك كل شيء بالتفصيل الممل لك والممتع لي.

ماتت أمه أثناء ولادته تحت القصف الصهيوني، مخلفة جسده النحيل لإعصار الوقت. هكذا بدأ حياته بالتحدي.. تحدي الموت الذي كان يتربص به في القماط. لم يصرخ مثل مولود عادي، كان مجرد خروجه صرخة في وجه العالم، بجسد لا شيء يؤهله للعيش. سوى عينين أوسع من الدمار.

قال: «عندما تكون حياة أمك ثمنا لحياتك فأنت لست ابنا لأحد ولا أنت جدير بأن تكون».
لذا كان أمامه خياران: إما أن يكون مبدعا أو مجنونا

بالمعنى المَرَضي للكلمة. واختار أن يكون مبدعا مجنونا..
مبدعا يقتات من الجنون يوظفه لصالحه. أسرَّ لي بأن هناك أوقاتا يطفو فيها الجنون على سطح روحه.. أوقات لا يعرفها سوى هو.

وحدها لحظات الحب ولحظات الانسجام التام مع العدسة كانت صفاء.

كل تصرفاته - هو المتشبث بالحياة - تقرِّبه من الموت: تدخينه بنهم، أرقه الدائم وكأنه يخاف لو إستسلم للنوم ألا يستيقظ ثانية، يكتفي بقيلولة وسط النهار ليتفرغ لحراسة الليل، على حد قوله.

كان مختلفا عن كل هؤلاء المبدعين الذين تعرفت إليهم، والذين يخلفون لديك الانطباع نفسه: بأنهم خرجوا من قالب واحد.

قال: البحر أنثى. وقلت: البحر ذكر. وتناقشنا طويلا حول الموضوع.

ولم يستطع إقناعي بوجهة نظره لأنه هو بالتأكيد كان مالحا.. له ملوحة البحر الميت.. صخب المحيط الأطلسي.. ودفء البحر الأبيض المتوسط.

أنت تعلم، ربما، حدة افتتاني بالبحر. لكن ما تجهله هو أنه افتتان شهواني.

كنت أعرف أنه ذكر متنكر وقد صادفته فيه. كان له
ركض الموج الذي لا يصل والعمق الذي يجعلك تطفو.
وقد قرر ألاّ نصل في يوم لقائنا الأول واختار أن يضاجع
ذكائي إلى حين.
مع أنني كنتِ جاهزة للغرق.»

توقفت أمينة لحظة وقد انتابها العطش لتشرب كوبا من
الماء، وإذا بها تلاحظ من جديد حركة خفيفة من سبابة عمر
اليمنى. لم تكن واهمة. غادرت الغرفة مهرولة إلى مكتب
الممرضة الرئيسية. التي قالت بعد أن عاينت عمر، وقد بدا
في نفس حالته، بحكمة تفرضها خبرة السنين: «كل شيء
ممكن».

قررت أمينة أن تكتفي بهذا القدر من البوح، وقد حركت
فيها ذكرى صبري أمواجا عاتية من الحنين.

19

«قد أفاجئكم أعزائي القراء، لو أخبرتكم بأنه على الرغم من نجاحي ككاتب، فقد كان مَيْلي الأولي نحو الفن التشكيلي. و أعتقد أن من الأشياء التي ساهمت في إغناء تجربتي الأدبية، انفتاحي على أنواع الإبداعات الأخرى، مقتنعا بأن طاقة الإبداع هي نفسها التي تتفجر حروفا أو ألوانا أو صورا أو غيرها. . والكاتب الناجح هو من يستفيد من كل صانعي الجمال.

من الأسباب التي جعلتني أعزف عن الفن التشكيلي ما يتطلبه من إمكانات مادية، وفضاء خاص وعلب ألوان. . و. . وأشياء تجعلك في حالة تبعية معينة، إذ لا يمكنك الاستغناء عنها. في حين أن الكتابة لا تتطلب أكثر من ورقة وقلم، بحيث بإمكانك الكتابة في الشارع أو في حديقة أو في مقهى أو على متن قطار أو طائرة. أما الفنان التشكيلي فلا يمكنه، خارج مرسم، أن ينتج فنا بسهولة. ربما هذا ما جعلني أتشبث بالقلم لما يمنحني من حرية في الحركة

والتنقل. ولا داعي للتأكيد أن وضعي المالي لم يكن على مستوى حلم من هذا النوع.

ومع ذلك، لدي حنين للوحات، والمرسم كان ولا يزال فضاء يلفني بسحره ويجذبني كما كان يجذبني في طفولتي المطبخ الذي كان محرَّما على الصغار مثلي. لذا كثيرا ما كنت أتردد على زيارة بعض الأصدقاء التشكيليين لقضاء وقت بمراسمهم.

رغم أنني من المعجبين ببعض التجارب بين فنانين تشكيليين وكتاب - خاصة الشعراء منهم- إلا أنني لم أستطع يوما الكتابة داخل مرسم أو الاندماج مع فنان تشكيلي في تواطؤ إبداعي خلاق. لسبب رئيسي، أصبحتم على علم به، هو أن الكتابة عندي تمارس بقلمين..

إلى أن جاء اليوم الذي وجدتني فيه داخل مرسم لفنانة تشكيلية، أنثى حتى النخاع، وكان ذلك بألمانيا، وبالتحديد ببرلين حيث كنت مدعوا لقضاء شهرين بإقامة للكتاب.

تعرفت عليها خلال حفل الاستقبال، عبَّرت لها عن حبي للفن التشكيلي فدعتني إلى مرسمها في اليوم التالي.

كان اسمها رجينا.

وصلت المرسم، وقد جمّد البرد أطرافي، قبل الموعد المحدد، فوجدتها منهمكة في رسم لوحة.

قالت في لطف:

«صب لنفسك ما تريد من شراب، اجلس حيثما تريد، لكن في صمت ريثما أنتهي.»

كيف أشرح لكم إحساسي ساعتها؟

كنت كمن يحلق في فضاء السكينة. المرسم نفسه قطعة فنية أبدعت فيها رجينا. موقد في الركن بألسنة لهيب حمراء تسرب دفؤها إلى أضلعي، وموسيقى شوبان تلفني في حالة من التأمل والصفاء.

فتحتُ قنينة جعة وجلست أرنو إليها..

كانت ترتدي سروالا من الجينز ملتصقا بتضاريسها، وقميصا من القطن أبيض شفاف ترصِّعه بقع من الألوان المتناثرة.. تكاد ترى من تحته نهدين منتصبين في حرية كأنهما يشاركان في عملية الخلق.

تحس بأن جسدها امتداد للوحة، تخلط الألوان بأصابعها قبل أن تلامس اللوحة وكأنها تضع زينة على وجهها الخاص. حتى شعرها الأشقر الطويل كان ملطخا بالألوان لكثرة ما تزيحه عن جبينها كلما انساب بين الفينة والأخرى.

أرنو إليها، وقد دخلت في حالة من الخشوع وجمدت أمام مشهد سينمائي رائع في رقته. ثم، وبكل تلقائية، أخرجت قلمي ومفكرتي من جيب سترتي وشرعت في كتابة بلون الدهشة.

مضى وقت وكل منا منهمك في ما يفعل..

وإذا بها تأخذ قماشا وتنظف يديها، ثم ترفع قميصها الأبيض، بكل تلقائية وكأنني غير موجود، لتخرج نهدها الأيسر، تلطخ حلمته بلون أحمر قان وتطبقه أسفل اللوحة.. موقعة إياها بأروع بصمة عرفها تاريخ الفن التشكيلي.

وبعدها تتوجه نحوي قائلة:

- لقد أنهيت، أتمنى ألا أكون قد أضجرتك.

ليت الضجر كان بهذه الرقة لاعتنقته عقيدة وإيمانا.

قضينا زهاء ساعتين نتجاذب أطراف حديث بلغة انجليزية نتعثر فيها معا. لم تكن تتكلم لغتي ولم أكن أفهم لغتها ولم نجد سوى بعض الكلمات الانجليزية لنؤثث بها فسحة للتعارف.

كنت دائما أعتمد لغة الكلمات في تواصلي مع الآخرين وكانت سلاحي الفتاك ضد النساء. لكنني اكتشفت، ولأول مرة، نعمة ألا تتقاسم لغة مشتركة مع امرأة، فأنت مجبر لبلورة قدرات خفية للتواصل مستنفرا كل الحواس من بصر، وشم، ولمس وذوق. تبدأ جملة بكلمة تسقط منك فتتممها بإشارة ونظرات..

هكذا اعتمدنا معا لغة الجسد.. لغة الحواس.

وعندما هممت بالإنصراف، عرضت علي وهي تصحبني إلى الباب، الحضور يوميا إلى المرسم إن كان هذا يساعدني على الكتابة. لم أتردد في القبول، خاصة وأنني كنت مطالبا

من طرف الهيئة المستضيفة بكتابة نص حول «حكاية حائط برلين» الذي سقط كما تسقط الحدود الوهمية بين رجل وامرأة.

وهكذا، وجدتني في صباح الغد مهرولا يلفني صقيع الشوارع، أبحث عن بعض الدفء بمرسم رجينا..

كانت في انتظاري وعلى الحامل لوحة عذراء لم تقتحمها بعد.

شربنا كأسا، ثم آخر.. ودون أن ندرك كيف، كنا في أحضان بعضنا نسبر ألوان جسدينا، وأرواحنا تطفو فوق موسيقى شوبان، كما كان يطفو جسمه النحيل الذي يخرج منه ساعة العزف، على حد قوله.

وقبل أن نستعيد أنفاسا لاهثة، نهضت هي إلى لوحتها عارية كعروس البحر لتلقي بأمواجها الملونة على بياض اللوحة.

كدت أجن من الفرح..

ها هي ذي فنانة تشكيلية من بلد آخر، وثقافة أخرى، تمارس طقوسي.. تجعل من ممارسة فنها امتدادا لممارسة الجنس.

من يجرؤ بعد هذا أن يفرق بين أنواع الإبداع؟

أنا بدوري، أخذت قلمي ومفكرتي في صمت وقذفت بما عندي على بياض أوراقي.

وما عرف قلمي فحولة شاهقة بهذه القوة.

أمضيت أياما في حلم لا ينقطع. وفي آخر لقاء لنا قبل عودتي إلى المغرب، جئتها واللهفة تسبقني لأجدها وقد هيأت لي مفاجأة أكبر من خيالي.

جهزت لوحة كبيرة بحجم سرير مريح، ناصعة البياض، وضعتها على الأرض، وأحاطتها بشموع صغيرة.. وحده شوبان كان شاهدا على نواياها.

خلعت عني ملابسي، وخلعتْ عنها ملابسها، ثم أمسكت بفرشاة في صمت مطلق وأخذت تغمسها في علب الألوان وتصبغ كل قطعة من جسدي بلون مختلف. ثم أمدتني بالفرشاة وطلبت مني أن أفعل الشيء نفسه مع جسدها.

أنا الذي دفن حلمه يوما في رسم اللوحات، ها أنا أرسم على جسد حي:
النهدان بالأحمر، الذراعان بالأبيض، البطن بالأزرق، الردفان بالأسود..و...
وما إن أصبحنا كفراشات الربيع حتى دعتني لأتمدد فوق سرير اللوحة التي على الأرض وتمددت بجانبي.. ومارسنا الحب بكل ألوان الطيف.

لم تكن ممارسة جنسية فحسب. كانت رقصة سحرية على إيقاعات شوبان فوق حدائق من ورود وزهور.

غادرنا اللوحة السرير لندعها تجف كما هي وبدون إضافات من الفنانة التي علقت وهي تقرأ تساؤلا بعيني:

«ليس من اللائق إضافة شيء للكمال».

صبت لنا كأسين من الشمبانيا، ورفعت كأسها قائلة: إلى «نفَس من الصحراء» وكان هذا هو الاسم الذي اختارت للوحتنا، لأنني جئتها كما أوضحت، من بلد الشمس، كنفس يدخل الدفء على برودة شتاء برلين.

المفاجأة الثانية، يا أعزائي، كانت لما أسرَّت لي، وهي تدخلني غرفة مجاورة لغرفة المرسم لتريني لوحات بنفس الحجم.. حجم السرير.. بأنها لوحات للعشاق الذين ساهموا في إضافة شيء لفنها.. كل لوحة تحمل اسما هو لقب العاشق.

وبأنها تفكر في إقامة معرض خاص لهذه اللوحات.. قد يكون المعرض الأخير في حياتها.

أضافت مازحة بشيطنة ذكية، بأنها لن تبوح بحكاية اللوحات لدى عرضها لتستمتع بتحاليل النقاد وهم يحاولون تصنيف التجربة.

للمرة الأولى، أنا الذي يراكم الملهمات، ويروّض قلمين معا، ويعتبر هذا جنونا، أصادف من هي أجن مني. تراكم بصمات الملهمين ورائحة أجسامهم أثناء فعل الحب، في لوحات لتعرضها في معرض خاص. أنا الذي تردد كثيرا، وانتظر أن يضطره المرض لاعتزال الكتابة، قبل أن يقبل على رسم ملهماته بالحروف على هذا الكتاب الأخير.

لا أعلم لماذا تذكرت في هذه اللحظة بالذات قصة قصيرة كنت قد قرأتها منذ سنوات للكاتب الأمريكي «إدغار ألان بو» تحت عنوان «البورتريه البيضوي الشكل». تحكي عن فنان تشكيلي كان يحب زوجته الفاتنة حبا جما ولكنه لا يرقى إلى حبه لفنه. وذات مرة قرر أن يرسم لها بورتريه. قضى أسابيع يرسمها ليل نهار وهي جالسة أمامه في الوضعية نفسها، بلا حراك، وابتسامة لا تفارق شفتيها. ويوما تلو آخر بدأت الزوجة الفاتنة تفنى ببطء وتدخل في حالة وهن عميق وتنحل أمام عينيه وهو لا يكاد يرى التغيير الذي يطرأ عليها. استمر في الرسم وهي بلا حراك ولم يلاحظ شحوب ألوان وجهها، فقد كانت ألوان اللوحة في أتم النظارة. ظل متوترا منهمكا في الرسم بكل قواه ومشاعره وهو مندمج في عمله إلى أن أنهى اللوحة. بعد آخر لمسة على البورتريه خطى خطوتين إلى الخلف وبدأ يتأمل إبداعه وهو مندهش حد الذهول. صرخ كالمجنون قائلا: «هذا ليس بورتريه إنه وجه حي».

ثم توجه بنظره نحو حبيبته، فإذا بها جثة هامدة.

استحضرت هذه القصة وأنا أرقب لوحات رجينا وهي تلتقط أرواح عشاقها وكأنها تقتلهم لتخلدهم على لوحات..

شعرت وإحساس بالفراغ يملأني أنني قد أصبحت مثلهم أكثر حياة على لوحتها».

اكتفى الأستاذ إدريس بهذا القدر من التفريغ، نهض إلى شرفته، ألقى بجسده لبرد مساء يذكره بصقيع برلين، وهو يردد في نفسه بشيء من الحنين، أبياتا للشاعر فرناندو بيسوا:

ضاجعتُ كل المشاعر
كنتُ قواد جميع الانفعالات
كل الأحاسيس الصدفوية ضيفتني على موائد الآخرين
غازلت كل إشارة مؤدية إلى فعل اللذة
ووضعت يدي في يد كل شهوات الرحيل..

20

ما إن وصلت أمينة إلى بيتها حتى اختلت بنفسها في غرفتها.

فتحت الكمبيوتر. مازالت تحتفظ برسائل صبري في ملف خاص. فتحت الملف وبدأت تقرأ:

«ها أنت تطرقين القلب بسحر مربك فأنتبه لأول مرة أن قلبي بلا أبواب.

اشتقنا فلا يكفي الكلام، وإنما الصمت واستعادة الصور.

لا يزال طعم لذيذ على طرف أصابعي.. حتى حلويات الدار البيضاء بقيت لأيام فوق طاولة الطعام، لا أستعجل في أكلها مخافة أن تبقى غير الرائحة.

صورك في حجمها الطبيعي تؤثث غرفتي.. أكاد أسمع خرير الماء وهو يتكسر على قدميك.

كم أنت رائعة بفستانك المبلل وكم يثير شهوتي!

Es-tu un voyeur ?

سألتني. أجل، الفنان الفوتوغرافي رنّاء ذكي، استطاع أن يصعد أو يسمو بمَيله الجنسي إلى مَيل فني. إذ يحوِّل هدفا غريزيا إلى هدف مقبول اجتماعيا. هل جوابي مقنع؟

حوريتي، مازال كل ذلك الجمال يوشِّح روحي وعقلي وجسدي، مازلت هائما ومأخوذا ومجذوبا لنورك ومعبدك.

لست امرأة من دم ولحم بل أنت دمي ولحمي.

آه، كم تصيح فحولتي باسمك وكم أكره المسافات.

شوقي عارم بسعة البحر الواصل إليك.»

تنتقل إلى رسالة أخرى:

«عماذا يا ترى أحدثك؟

عما خلفته من فراغ أم عن امتلائي بك؟

أم عن هذا الذي يكبر فينا؟

ما زلت أسمعك تقولين بالمغربية: «مْنينْ جِيتيني أنتَ»؟

جملة تدوي بأذنيّ.. وأنت التي أتيت من حيث لم انتظر كزلزال يعيد بهزاته ترتيب الأشياء المبعثرة.

ماذا فعلت بي؟

أيعقل أنني أصبحت أفكر في ما يمكن عمله للاجتماع بك، للقائك، لما يعيد وينشط تلك اللحظة السحرية، لما يبسط الزمن بما يسعنا ويسع ما يتأجج فينا.

تعالي إلي أكثر فأكثر..
واقترفي الحضور الذي لا يرضى بأي غياب.»

ثم رسالة أخرى:

«رائعتي،
تريدين مني أن أختبر الصبر.
الصبر حليف الانتظار، وأنا لا أحسن الانتظار.
عاشق ممل هو الانتظار، يتعثر في الرتابة، وإن كان عند البعض يؤجج اللهفة فعندي أنا كان دائما يسرِّع إيقاع الموت الصامت بداخلي.
نحن لا نخاف إدمان بعضنا البعض، بقدر ما نخاف الألم الذي يسببه الانقطاع عَما ندمنه.
ومن فرط خوفنا نستعجل الألم باختبار الصبر، موهمين أنفسنا بأنه بمقدورنا تمديد اللحظة إلى ما لا نهاية مؤجِّلين الفراق.
لكن الفراق المحتوم هذا عندما يأتي فهو لا يستأذن أحدا.
أنا لا أضمن هذا السيل الهادر بداخلي الذي يخيفك، لا أعلم متى يضعف ومتى ينضب.
نخافه وكأنه أبدي، والأجدر بنا أن نرتوي به في ساعته، لأن العطش هو الحالة الأصل، هو قدرنا، أما الارتواء فنحن من يسعى إليه.

فلماذا عندما يلبي نخافه ونفتقد العطش؟
علمتني الحياة أن الثمار عندما تنضج يجدر بنا قطفها، لأننا لو تأخرنا يتلفها الانتظار.
هكذا نحن ثمار تسقط من فرط الانتظار.»

رن الهاتف لينتزع أمينة من ذكرياتها.
صوت ابنها أمير قادم من الولايات المتحدة الأمريكية حيث يدرس. لم تخبره بحادثة والده حتى لا تزعجه في فترة الامتحانات. لكن يبدو أن الإنترنيت الذي ينقل الرسائل الغرامية هو نفسه الذي ينقل أخبار الكوارث والحوادث ويفضح الأسرار.

قال غاضبا وبدون مقدمات:
- لماذا لم تخبريني بأن والدي في غيبوبة بالمصحة؟ ألست ابنه؟
- أرجوك حبيبي، لا تغضب مني، كنت فقط أنتظر نهاية الامتحانات. ثم نحن لا نعلم كم ستدوم غيبوبته.. من؟.. من أخبرك؟
- كل أصدقائي على الفايس بوك يسألوني عن حالته وأنا لا أعلم شيئا. ماذا تنتظرين؟ أن يموت في غيابي؟ أنا حجزت الطائرة بعد ثلاثة أيام، لو وصلت بعد فوات الأوان فلن أغفر لك أبدا.

أقفل أمير الخط بعصبية.

شعرت أمينة بأنها فعلا مخطئة، لكن الأم كثيرا ما تفقد الصواب في سعيها للحفاظ على أبنائها.

أسرعت في الاتصال بخولة، قبل أن يسبقها أمير، لتخبرها بحادثة والدها.

21

لا أخالني أنسى يوما تلك الليلة،
بذاك الفندق الهادئ المريح، على ضفة النهر بمدينة هانغشان الصينية، حيث كنت أشارك في مهرجان ثقافي.
كان الليل قد انتصف، وكل من الضيوف قد خلد إلى سكون السرير بعد يوم قضيناه في نزهة على الجبل الأصفر جعلتنا نمتلئ جمالا حد التخمة، وتكل عضلاتنا حد الوهن.. أخذنا بعدها المنظمون إلى مكان مختص في التدليك لنستمتع زهاء ساعة بتدليك الأقدام.

بينما أنا في أتم الاسترخاء فوق سريري، أنصت إلى دبيب النشوة في أقدامي، التي ما عرفت عناية كهاته، يهب صوت سوبرانو من الغرفة المجاورة. صوت نسائي لصينية تبدو محترفة أوبرا.
نوتة ثم أخرى.. يرتفع الصوت.. يعلو تدريجيا.. يتبحبح.. ينزل درجة.. يتحشرج.. ثم يصعد ثانية ليهوي بعدها ويتكسر في موجة من بكاء.

بكاء امرأة تحاول أن تضرع ألما . .
ألم كثيف كسماء حبلى أحسه يهطل عليَّ شيئا فشيئا . .
أتماسك وقد بدأت ذاكرة آلامي تستفيق.
أحاول أن أعود إلى التركيز على أقدامي بعد أن بدأ صوت البكاء في الانخفاض.

صوت المطر زف هو الآخر دون استئذان، كما هو الحال في جنوب الصين، ليدغدغ آذان الصمت، ويستفز صوت السوبرانو القادم من الغرفة المجاورة. الذي ما يلبث يعيد الكرَّة من جديد: يرتفع، يتبحبح، يعلو، يتحشرج ويهطل في انتحاب شديد، ليتسرب إلى روحي محركا مشاعري ومدثرا إياي برداء من الحزن.
لكأن الصوت صوت ألمي. . لكأنه عصارة جراحي الممتدة على طول سنين عمري . . ينزف قلبي وقد توحَّد مع وجع الصوت.

من هذه المرأة؟ من تكون؟ وما سر هذا الألم؟

نهضت من السرير وقد أحسست رغبة عارمة في الكتابة، وكأن قلمي يريد بدوره أن يجهش بالبكاء.
وإذا بي أتورط في نسج قصة تليق بهاته المرأة من خلال صوتها.

إنها بالتأكيد محترفة للغناء، يبدو من خلال صراعها أنها تتألم، ربما بالغت في شرب نبيذ الرز الأحمر الحلو الذي يُشرب دافئا في كؤوس صغيرة تفرغ في جرعة واحدة على الطريقة الصينية، والذي يوصلك إلى الثمالة بفن ثقافة عريقة تحسن الثمالة كما تحسن الصحو.. والذي سقطت في حبه منذ اللحظة الأولى.

لكن الثمالة لا تبكي إلا من كان من قبل حزينا.

فما سبب هذا الحزن الدفين؟
إنه ألم يشبه ألم الفقدان، لابد أنها قد فقدت شيئا مصيريا بالنسبة إليها. وما يمكن أن يكون مصيريا بالنسبة لمغنية الأوبرا غير صوتها؟ أجل صوتها.. إنها فقدت صوتها.. ولهذا تحاول الغناء لكن سرعان ما يخونها.. وهذا سر معاودة الكرة، ففي كل مرة تحاول أن تطلق العنان لحبالها الصوتية لكنها تتعثر كلما حاولت أن تعلو بها إلى طبقات رفيعة.. نعم وجدتها.. وجدتها.

وهكذا وجدتني أكتب قصة امرأة، أو بالأصح قصة صوت يصارع موته.

ترنيم المطر يحتد.. ودقات قلبي يرتفع إيقاعها.. كلما بعد هدأة ارتفع صوت السوبرانو بالغرفة المجاورة.

كم مرة غنت وبكت وهدأت؟ وأنا مشدود لقلمي ولصوتها الذي ينفذ إلى مسام روحي بينما أسكب على ورقة قصة أعرفها.. تكاد تكون قصتي.. قصة كل فقدان.. فقدان ما يشكل معنى لحياتنا.

ماذا لو فقدت بدوري القدرة على الكتابة؟
هاجس أعرفه، اتضح أمامي الآن عاريا كطيف أخافه، بكل قسوته بكل الدمار الذي يعد به.
نعم، لهذا السبب وحد صوت الاحتضار بيننا.. فأضحت صوتي وصرت حروفها التي تختنق لحنا بحنجرتها.

ظللنا على هذه الحال طوال الليل:
قلم ينسج حكاية من حبال صوتية.. وصوت يتسلق حبالا لا تفضي إلى شيء.. بينهما جدار وجوار.
وطلع النهار، وخمد الصوت، ونهضت لأن برنامج الصينيين لا يحتمل التأخير.

ماذا لو صادفتها خارجة من غرفتها؟
لا. لا أريد معرفة امرأة صنعتُ قصتها من خلال صوتها. إنها ليست امرأة بالنسبة إلي، إنها صوت فقط، صوت يصارع الموت.. إنها صوت الفقدان.

كان برنامج المهرجان حافلا، قضينا النهار بين

محاضرات ونزهات ووجبات غنية في اختلافها متعددة في مذاقاتها.

وجاء الليل، ووجدتني في سريري أنتظر بزوغ الصوت، وقد بدأ مفعول نبيذ الأرز الأحمر يرفع من حرارة حنيني. لكن الصوت لم يبزغ، وكليل خانه القمر حزنت على امرأة/ صوت ألهمتني قصة حمّلتها إسقاطاتي الخاصة.

أخذت القصة وبدأت في تنقيحها، مضيفا جانب الدراما.

رسمت للمرأة وجها صينيا هادئا حد البرود، ببشرة بيضاء ناصعة تخلو من كل بصمات للزمن، وأحمر شفاه قان يُظهر بياض ملامحها وسواد شعرها الحريري. قدّ متوسط الطول نحيف كقدّ فراشة، يتوسطه خصر من فرط ضيقه يكاد يكون منعدم الوجود. وألبستها أناقة تليق بألمها- القارئ يتعاطف مع الجمال لا مع القبح - اختلقت لها ماض مشحون بالتناقضات والعنف العائلي. أمّ تخلت عنها وأب منغمس في الشراب. فقر وكفاح وكثير من العزلة بحيث تكون موهبتها هي الهدية الوحيدة التي منحتها إياها الحياة.

وهبتها ذكاء يجعلها تلمس قيمة هذه الهدية وتجعل منها خلاصها.

تكرَّمت عليها بعبقرية أم كلثوم في جعل موهبتها أكبر من كل حب. ورفعتها إلى أعلى مدارج الشهرة والعزّ قبل أن أسلبها ما يشكل معنىً وضرورة لاستمرارية حياتها.. صوتها السوبرانو.

تأثرت بهذه القصة وأنا أعيد قراءتها وكأنها حقيقية. .
ماذا لو أصبت في تخميناتي وكانت حقا هذه هي تفاصيل حكاياتها؟

أنهيت القصة تاركا بابا مواربا للتأويل فالنهايات المفتوحة كانت دائما تستهويني. ليظل السؤال عالقا: وماذا بعد؟

هل ستقبل على الانتحار؟ هل ستجد في دواخلها القوة لابتكار معنى آخر لحياتها؟ هل ستتحرر من أسر الشهرة أخيرا لتعيش حياة عادية كما تتمنى؟ هل..؟ وهل..؟ لأدع لك عزيزي القارئ متعة اختيار النهاية التي تريد موظفا بدورك إسقاطات من حياتك الخاصة.

وجاء الصباح، ولم أكن قد عرفت طريقا للنوم، كنت في حالة من النشوة لا يعرفها إلا من انتهى من كتابة قصة ورضي عنها.

غادرنا الفندق لنعود إلى مدينة شنغهاي ومنها إلى ديارنا غانمين.

وفي القطار، كنت أجلس بجانب الكاتب الصيني الوحيد الذي يتقن اللغة العربية.

تجاذبنا أطراف حديث حول الثقافة والإنسان، وإذا بي أحدثه عن الصوت الذي أتاني، الليلة ما قبل الأخيرة، من الغرفة المجاورة واستفزّ قلمي. سردت عليه القصة كما كتبتها وهو ينصت إليّ في هدوء تام من دون أن يقاطعني قبل أن

يتدخل قائلا بأنه يعرف تلك المرأة كما يعرف قصتها، لكن قصتي بدت له أكثر مأساوية وتليق أكثر بالأدب. فالقصة الحقيقية تكاد تكون عادية، من وجهة نظره، لذا فضّل أن أبقى جاهلا بها حتى لا أغير شيئا من حكايتي الورقية.

وأضاف بأن الحقيقة لا تغدو أن تكون أكثر من إحساسنا بها.

لكن فضولي كان أقوى من أن أقتنع، وإلحاحي جعله يستسلم في النهاية.

قال إن اسمها «جون» وأنها فعلا مغنية أوبرا ناجحة ومشهورة. وإنها تأتي الفندق مرة في الشهر من العاصمة بيكين، حيث تعيش لوحدها، لتلتقي بعشيقها. رجل سياسي ذا نفوذ، متزوج وله أولاد، معروف بشغفه بالفنانات عموما، لكنه مع ذلك حريصَ على سمعته.

اعتاد أن يأتيها ليلا واعتادت أن تستقبله بالغناء.. يحضر إلى الفندق، ينتظر في البهو إلى أن يسمع صوتها آذنا له بالدخول.

وهذا سر غنائها ثم بكائها بعده. كانت تعلم أن غيابه يعني شيئا واحدا: نهاية علاقتهما. وفي هذا معك حق فهو صوت الفقدان فقدانها لحبها. انتظرته طوال الليل لتنسحب في هدوء مع بزوغ النهار منكسرة، مدمرة، مقتنعة بتخليه عنها وقد كان حبها الوحيد.

يبدو أنها حاولت فعلا الانتحار، كما جاء في تخمينك

أيضا، فقد جاء في جريدة اليوم على أنها بالمستشفى. لقد نجت بأعجوبة بعد أن ألقت بنفسها في النهر المجاور للفندق، لقد لمحها أحد الرياضيين وهو يركض على ضفة النهر فأنقذها.

تنفست الصعداء، وعبرت لصديقي الكاتب الصيني عن فرحي بنجاتها، لأن المواهب ملك للإنسانية وفي موتهم بعض موت لها.

بعد لحظة صمت بيننا، أضاف قائلا:

- ما لا تعرفه بعد، هو أن نفس الجريدة قد نقلت خبر وفاة عشيقها في حادثة سير وهو في طريقه إليها.. لم تكن تعلم طبعا قبل إقدامها على الانتحار بالخبر، لكن صوتها الذي أحزنك حد الألم قد كان فعلا صوت الفقدان الأبدي ومن هنا جاء سر تأثيره عليك.

فقلوب العشاق كالحيوانات تحسّ الكوارث العاطفية من قبل أن تحدث.

جمدت في مكاني وأنا لا أعلم أي القصص هزّتني أكثر، فقدانها لصوتها، تخليه عنها أم فقدانه الذي لا رجعة فيه؟

وهل يمكن قياس فقدان بفقدان؟

قلت بمرارة:

- الحياة لا تعطي كل شيء.

همس في تأمل يبدو طبيعة ثانية عند الصينيين.

- أجل، ولكن هل هذا فعلا مستحب؟

سألت:

- ماذا؟

أجاب:

- أن نحصل على كل شيء.

عدت من الصين أحمل القصص الثلاثة بقلبي، ألقيت بواحدة للنشر لتعرش كشجرة وتتعدد أغصانها بتعدد الإحساس بالفقدان لدى قرائي.

كانت هذه أول مرة تلهمني امرأة لا أعرف منها سوى صوتها».

شعر الأستاذ إدريس برغبة في كأس من النبيذ الأحمر. أراح القلم واتجه نحو المطبخ، ومقولة لجبران خليل جبران تعبث بفكره:

«يغمسون ريشاتهم في قلوبنا ويزعمون أنهم مُلهَمون».

22

ضمت أمينة بحرارة ابنتها خولة التي جاءت غداة تلقيها خبر والدها. فالرحلات الجوية من باريس متاحة أكثر من غيرها. ظلتا صامتتين بين أحضان بعضهما.. ودموعهما تنوب عن الكلام.

ما إن غادرتا مطار محمد الخامس، وركبتا السيارة حتى قالت أمينة في اعتذار شديد:

- عذرا ابنتي إن أخفيت عنك خبر حادثة والدك، فلأنني كنت أتمنى أن يخرج من غيبوبته قبل أن تعلما أنت وأخوك بالأمر.

سألت خولة وهي تجفف دموعا ترفض أن تكف عن السيلان:

- كيف هو الآن؟ وماذا يقول الأطباء عن حالته الصحية؟

أجابت أمينة بكثير من الدبلوماسية:

- لهم أمل في عودته إلى الوعي، لكن يجهلون متى سيعود.

- لماذا تتحملين وحدك ثقل مصيبة كهاته؟ نحن جزء منكما.. ومن حقكما علينا أن نساندكما في الظروف الصعبة.. لم نعد أطفالا يا أمي..

أضافت خولة وهي تحضن أمها بحرارة.

- أجل، أعلم حبيبتي. لكن ليس بيديكما فعل شيء.

خولة فتاة طيبة وحساسة جدا، كانت تعلم بما يجري بين والديها لكنها لا تتدخل في علاقتهما منذ أن أمرتها والدتها بذلك.

كانت خولة مراهقة في الرابعة عشرة من عمرها، يوم علمت من إحدى صديقاتها بالثانوية أن لوالدها عشيقة. تغيرت علاقتها به وأصبحت تعامله بخشونة وقل احترامها له. الشيء الذي لم تقبله أمينة.

وقد حصل بينهما نقاش حاد حول الموضوع:

- أعلم أنك في سن صعبة يا خولة، لكن هذا لا يعطيك الحق في عدم احترام والدك.

- لماذا لا تطلبين منه هو أن يحترم نفسه أولا؟

- ما هذا الأسلوب الجديد يا خولة، ما الأمر؟

- زوجك لديه عشيقة وأنت آخر من يعلم.

ألقت خولة في عصبية مفرطة بهذه الكلمات كما نلقي بجمرة.

جمدت أمينة في مكانها، لكنها سرعان ما تمكنت من أعصابها وردت بهدوء مصطنع:

- ما دخلك أنت بهذا؟ أنا أعلم كل شيء، وهذه علاقتي الخاصة بوالدك، وليس لك الحق أن تتدخّلي فيها.

- كيف تقبلين بإهانة كهذه؟ إنه خائن وكذاب.

أمسكت أمينة بيدي خولة بقوة وهي تقول حاسمة:

- خولة عزيزتي، اسمعيني جيدا. هذه آخر مرة أسمح لك فيها بالحديث عن والدك بهذا الشكل. هو أب مثالي وإن كان خائنا فهو لم يخنك أنت بل أنا. ثم أن أقبل أو لا أقبل هذا شيء يخصني.

- كيف؟ أليس والدي؟

- أجل والدك لا زوجك.

انفجرت خولة باكية وارتمت بين أحضان أمها:

- لا أريد منه أن يؤلمك.. لن أسمح لأحد بإيلامك.. ولا أريدكما أن تتطلقا.

- من أخبرك بهذا الهذيان؟

- في الثانوية أكثر من نصف القسم من أسر مفككة.. و..

أحست أمينة بمعاناة ابنتها، وبقلقها. مسحت دموعها وقالت بلطف وهي تحاول تبسيط أمور معقدة:

- أنت ما زلت صغيرة، وهناك أمور لا يمكنك فهمها بعد. العلاقة بين زوجين أعقد من أن تستوعبها شابة في مثل سنك. اعلمي أنني لست تعيسة أبدا. ولا يوجد شيء في حياة والدك خافٍ عني. وسيأتي يوم تدركين فيه بأن الحياة ألوان متعددة، لا يوجد ما هو أبيض وأسود فقط.. ليس هناك ما هو أعقد من العلاقات الإنسانية ومن الحب. ثم إن الطلاق غير وارد في علاقتي بوالدك.

هدأت خولة عندما علمت بأن الطلاق ليس من مشاريع والديها. وحتى تقفل أمينة الموضوع كليا، أضافت:

- أريدك أن تعديني بشيء.
- ماذا؟
- أن لا تحكمي على والدك ولا علي.. أن تعودي كما كنت الرقيقة الطيبة التي نحبها جميعا. وأن لا تتدخلي أبدا في علاقتنا الزوجية. وأنا أعدك بأن لا شيء سيتغير في حياتنا.
- أعدك.

تذكرت خولة هذا الحوار الذي دار بينها وبين أمها منذ سنوات، قبل أن تسأل بكثير من الحذر:

- يبدو أن سيدة ماتت في الحادث. هل أعرفها؟

- إنها كوثر رحمها الله. صديقة عزيزة، تعرفت عليها بعد رحيلك إلى باريس. تشتغل مضيفة في الطيران الإماراتي. وكنت قد طلبت منها أن تشتري لي بعض الأغراض من دبي وكلفت والدك أن يأخذها من المطار.. وحدث ما حدث.

شعرت خولة بأن أمها لن تبوح بأكثر، وحدسها يقول لها إن هذه ليست هي الحقيقة، خاصة وأن والدها لم يعتد القيام بخدمات من هذا النوع وأن السائق هو من يقوم بمهمة جلب الأغراض أو الأصدقاء من المطار.

لكنها قررت احترام رغبة أمها في الحفاظ على الصورة الجميلة للأسرة التي ناضلت من أجلها طوال حياتها.

وصلتا إلى البيت. عانقت خولة جدتها التي ابتسمت في وجهها قائلة:

- هل أنت عروس ابني؟ لقد عرف كيف يختار.

بكت بين أحضانها وهي لا تعلم من منهما تبكيه.. جدتها أم والدها،

قبل أن تسحبها أمينة إلى المصحة لزيارة أبيها.

23

«آخر مغامراتي العاطفية قبل إصابتي بالمرض المشؤوم، كانت خلال مشاركتي في ندوة أدبية بإحدى دول الخليج، حيث يغدق عليك المنظمون بكرم لا عهد لك به.

كنت أقيم في فندق فخم، بغرفة باذخة، يعادل ثمن ليلة في أرجائها ثلاثة أشهر من أجرتي كأستاذ مبرز بالجامعة.

المشكلة، أيها القارئ العزيز، أن كل شيء تشتهيه نفسك من أكل وشرب لك بالمجان، باستثناء المشروبات الكحولية. وفي الوقت نفسه تجد في متناول يدك بالغرفة الباذخة «ميني بار» مملوءا عن آخره بكل أنواع النبيذ والكحول والجعة. لكنك لا تستطيع أن تطاله لأنك الزبون الخطأ الذي سقط سهوا في أعلى درجات العز.

وهذا التناقض القاتل، كفيل بأن يكرّس وضعيتك البائسة، وتردد في نفسك: «حقا الأدب لا ثمن له» - بمعنى أنه منعدم القيمة - وتتذكر غضب والدك يوم صدمته بقرار دخولك كلية الآداب، هو الذي ينتظر منك أن تحقق حلمه في أن تصبح طبيبا جراحا.

ساعتها هجيته في قصيدة من قصائدك الرديئة الأولى.

لو كان بوسعه أن يراكَ الآن من هناك لضحك من ضعك.. كمن وضعوه في الجنة وفقؤوا عينيه.

أنحتاج إلى النقود في الجنة أيضا؟ لم تعد تستبعد هذا.

وحده حضورها جعلني أسكر بدون شراب.

بينما أنا جالس على طاولة جنب المسبح، سقطت عيني على كعب عال لحذاء أحمر يتقدم في اتجاهي، وأنا منكبّ أبحث عن ولاعتي التي ضاعت مني على الأرض. تسلقت نظرتي ساقين مفتولتين، ثم خصرا رقيقا، لتصعد إلى صدر نصف عار قبل أن تلتقط نظرة أعادتني إلى ارتباك مراهقتي.

تقدمت نحوي في غنج رقيق كرقة قدِّها.

ظننتها في البداية لبنانية الجنسية نظرا لأناقتها الكاشفة. لكنها كانت سعودية تعيش وفق قوانينها الخاصة خارج بلدها، كما صرَّحت أمام دهشتي، وهي تطلب مني إجراء حوار معي لصالح الجريدة المحلية التي تعمل فيها كصحافية.

طبعا، وافقتُ، وأنا ممتن لقوانينها، على الحوار وعلى كل الحوارات التي قد تتولد عنه.

كانت رجاء - وهذا اسمها- مطلقة ولها أربعة أطفال يعيشون مع والدهم بجدة. تعلمت منها أن لا أربط كيان امرأة بجنسيتها، فهي أعقد من أن تنتمي إلى وسط معين،

خاصة إن كان هذا الوسط يحد من حريتها. . وتعلمت منها أن الحرية هي أثمن ما لدينا كبشر. هذا لا يعني أنني لم أكن على علم بهذه البديهة، لكنك عندما تملك شيئا لم تناضل يوما من أجله، فأنت لا تعي معنى أن تمتلكه.

تحاورنا بعمق مهني أوصلنا مباشرة إلى غرفتي الباذخة.

كانت تعي بدقة وقع جمالها على الآخرين وتعرف كيف تتعامل مع طريدتها. طلبت مني أن أجلس وأستمتع أولا بالنظر إليها، وهي ترقص على إيقاع موسيقى غربية، وتنزع ثيابها بطريقة فنية كمحترفة «ستريبتيز».

كان لها جسد مطمئن. . تلك الطمأنينة التي يمنحها الرواء.

وعندما نزعت تبانها، أو ما يشبه ذلك، ظهر وشم في أسفل البطن، على شكل فراشة بألوان زاهية، يمتد من صرتها إلى منبت الشعر فيما تنحدر الجناحان جانبي عضوها.

لأول مرة أرى وشما بهذا الشكل وبهذا الموضع.

سألتها ونحن نسترجع أنفاسنا ورأسي على بطنها عن سر هذا الوشم. قالت إنها رغبة في المصالحة مع منطقة من جسدها كانت سبب كل مصائبها.

أليس هذا المثلث سبب زواجها المبكر الذي جعل منها أمّا قبل الأوان، ليتمزق وينكمش كقماش بال وهي لا تزال في ريعان شبابها؟

أدركت بعد طلاقها أنه لابد أن تتصالح مع هذه المنطقة بالذات، فزينتها لتصبح روضة للفراشات، تفتح أبوابها متى قررت هي، وبمحض إرادتها، نكاية في كل الوجع الذي سببه لها هذا المثلث.

قضينا الأسبوع نلتقي خلسة كل ليلة، نقضيها بين أحضان بعضنا، وأنام أنا بين جناحي الفراشة. ضاربا بالكتابة وطقوسها عرض الحائط.

تصوروا: لقد كانت أول مرة أمكث فيها بين أحضان امرأة بعد ممارسة الجنس ولا أحس بأدنى رغبة في الكتابة.. أحسست معها بسكرة الأقاصي وجذبتني لذة الضياع.

وفي الليلة الأخيرة، جاءت غرفتي قائلة بغنجها المعتاد بأنها حائض. ظننتها كمعظم النساء سوف تمتنع عن ممارسة الجنس، لكنها على عكس ذلك كانت أكثر تألقا.

قالت:

- منذ أن وضعت «التاتو» على المثلث أصبحت أحب جسدي ولا أخجل من عضوي. أصبحت الإفرازات رحيقا، ودم الحيض نبيذا أحمر يسيل من جداولي مرة في الشهر ليذكرني بالأنثى التي اخترت أن أكونها.

في كل حيض إجهاض يحررني من أمومة استعبدتني..

أصبح اللون الأحمر لون الحرية.. لون المتعة التي لا ينتظر منها شيء سوى أن تتحقق.

خطاب كهذا لا يمكن إلا أن يسعدني، أنا الوحش الذي قضى عمره في إقناع النساء بأن ممارسة الجنس أثناء الدورة الشهرية مسألة طبيعية.

كنت قد اجتهدت في الموضوع حيث بات باستطاعتي إقناع كل عشيقاتي بالاستمتاع بأجسادهن طوال أيام السنة، وبأن هذه الأفكار غير صحيحة علميا، وأن من ميزة دم الحيض الحماية من الوقوع في حالة حمل غير مرغوب فيها. لكن السبب الحقيقي - بما أنني وعدتكم بالصراحة كل الصراحة- هو ضعفي أمام رؤية الدم. فبإمكان نقطة دم واحدة إثارتي جنسيا. لهذا كنت ممنونا لصحافيتي الجميلة لإعفائي من طرح نظريتي في الموضوع، فنظريتها كانت أقوى ونابعة عن إرادة ذاتية.

بعد ليلة حمراء على جميع المستويات تبوّلتُ دما.

ظننته في البداية من مخلفات دم حيضها، لكنه تكرر بعد عودتي إلى المغرب مما أقلقني وجعلني أستشير الطبيب الذي شخص سرطان البروستات لدي.

وكان هذا آخر عهدي بالدم النسائي والجسد الذي يحتويه.»

أحس الأستاذ إدريس بثقل في رأسه، كاد ينادي على فطومة لتأتيه بفنجان قهوة، لكنه سرعان ما تذكر أنها قد سافرت لأداء مناسك الحج.

لماذا لم يقبل بمساعدة صديقتها؟
لقد كابدت عناء المجيء وأحضرت أغراضها لتقيم معه، كما اتفق، في انتظار عودة فطومة. لكن شيئا غامضا جعله يفضل الوحدة على أن يقاسم امرأة غريبة حميمية بيته، فاعتذر لها بأدب. وها هو الآن يتدبر أموره لوحده ويدرك كم هو صعب أن يعتاد الإنسان على أن لا أحد يهتم به.
هو الذي يؤمن بأن العزلة ثغرة لا يمكن ملؤها.. وبأنها شرط من شروط الإنسانية.

نهض ليعد قهوته وهو يعجب من حنينه إلى فطومة وإحساس الفراغ المهول الذي خلفه غيابها..
إحساس يفوق حاجته المادية لخدماتها.

24

بعد أسبوع من مجيئهما، أقنعت أمينة أمير وخولة، بمساعدة الطبيب الرئيسي، بالعودة إلى حيث يقيمان لاستئناف دراستهما.

قال الطبيب بأن مكوثهما الذي لن يغير شيئا من مصير عمر قد يطول، وبأن لا أحد يعلم متى يعود إلى وعيه، كما حدثهما عن حالة البولندي الذي استفاق من غيبوبته بعد تسعة عشر عاما.

وأضافت أمينة بأن أمْنية والدهما الكبيرة هي أن ينجحا في دراستهما، وأنه لو كان باستطاعته الكلام لطلب منهما السفر في الحال، فهو لن يقبل بأن يضيعا سنة من دراستهما من أجله.

بعد تردد كبير، ووجع أكبر سافر أمير إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وعادت خولة إلى باريس. وانفردت أمينة

من جديد بعمر وقد أصابها خوَف من أن يموت قبل أن تنتهي من بوح أصبح ضروريا لتوازنها.

جلست أمامه مصرة على إتمام قصتها مع صبري:

«عدتَ من فرانكفورت..

دون أن تنزل تماما من سمائك الثامنة، حيث لم تلاحظ كم تغيرتُ وكم أكادُ أطفو من خفة الجسد.

لأول مرة لم أهتم لعدم انتباهك لحالتي، بل كدت أشكرك على غيابك، كنتُ بشوشة، أوزع الابتسام على أمك وعلى الخدم.

وحتى عندما أبديتَ رغبتك في ممارسة الجنس، كعادتك بعد كل عودة من السفر، موهما إياي بعكس ما أعرف، لم أمانع.

مارسنا الجنس بانسجام تام وبحنان كما في السنوات الأولى من علاقتنا. مارسناه بامتنان للحياة.

يا للمفارقة العجيبة!

يبدو أن طبيعة الرجل الحيوانية تجعله يشتم رائحة الإفرازات الجنسية مما يثيره ويفتح شهيته. وقد رأيت الرغبة في عينيك، أنت العائد من أحضان كاتبتك المتسلقة.

لم تكن بقايا اشتهاء لأخرى، كان اشتهاء لجسدي أنا.

جسدي الذي كان ينضح برائحة صبري.. وكأن الخيانة زادته رونقا وجمالا.

هل أحسستُ بالذنب؟ قطعا لا.

علمت أن صبري هدية من السماء، تقبلتها بامتنان، وقررت ألا أحزن لفراقه بل أسعد لكوني بعدُ قادرة على الحب وعلى العطاء.

ولم أندم يوما على ما فعلت، بل ندمت على كل اللحظات التي منعتُ نفسي من التقاطها عن وفاء أو عن غباء.

كيف لم أتعلم منك من قبل؟

وأعيش الحياة بدوري عوض أن أتحول إلى محاسب لمغامراتك، أدفع لكل عاطل قبِلَ أن يلعب دور «مخبر سري» لأسبوع أو لشهور، وكأن معرفتي بخياناتك سيجعلها أقل بشاعة وتجعلني أقل غباء. مع أن تصرفي هذا ليس أكثر من تعبير عن مازوشية مرضية تتلذذ بلعبة التجسس.

ليتني تعلمت منك؟

قالت لي مرة إحدى السيدات، المجربات، أن الشيء الوحيد الذي يشفي المرأة التي يخونها زوجها هو أن تخونه هي أيضا ولو لمرة واحدة. بل مرة واحدة تكفي لتغيير نظرتها إليه.. وإلى الحياة.. وتكسر صورة «سي سيد» الزوج المستبد الذي يسمح لنفسه بكل شيء ويمنع عنها أي شيء.

أدركت بعد قصتي مع صبري كم كانت هذه السيدة على

حق. ولو أنه لم يكن هذا هو السبب في مغامرتي معه بل انجرافي العاطفي نحوه.

كنت أعتقد أنني لا أملك سوى خيارين: الرحيل أو القبول بخياناتك. وقبلت بها. وكلا الخيارين كان موتا. لكن صبري علمني أن هناك خيارا آخر:
أن أمنح نفسي حقها في الحياة.

أتعلم، أنك عندما تسرح بفكرك الآن أمام التلفزيون أو على مائدة الطعام لم أعد أتقطع غيرة وألما بل أبتسم بداخلي وأسرح بدوري في صبري.. مرددة في سري: «ها قد تساوينا».

جميل حقا أن تكون للمرء أسرار خاصة وعوالم سرية تسرح فيها وسط الزحام».

سمعت أمينة طرقات على الباب، كان الوقت متأخرا والصمت يعم المصحة. التفتت، وقبل أن تأذن بالدخول فُتح الباب برفق ليتقدم الأستاذ إدريس.
كان آخر من تمنت رؤيته.

25

عندما يكون لديك صديق حميم فأنت تريده لك وحدك، وترفض أن تتقاسمه مع أفراد أسرتك، لأنه حامل أسرارك.

فكيف تسمح لأحد بأن يحتك بأسرارك؟

هذه صفة نجدها أكثر شيوعا عند الرجال. فكلما وطد أحدهم علاقته بصديق أبعده عن زوجته.

لم يشكل عمر والأستاذ إدريس استثناء، فعلى هذا النمط الذكوري قامت علاقة الصداقة بينهما.

كانا يقضيان أوقاتا طويلة معا بالشقة السرية أو أثناء أسفارهما. لكن زياراتهما لأسر بعضهما البعض كانت مناسباتية محضة، من أجل أن تبقى العلاقة بين زوجتيهما بعيدة عن كل حميمية.

كان اقتناعهما شديدا بكون النساء عندما تتصادقن فعلى حساب الرجال، وبأن طبيعة المرأة تجعلها تحكي، بأدق

التفاصيل، كل ما يرتبط بحميمياتها مع زوجها أو عشيقها، لصديقة وأحيانا في جمع نسائي عام.

أما الرجال، فقلما يسرون بحميمياتهم لبعضهم البعض. ربما يرجع هذا لكون النساء يتقاسمن مشاكل الحمل والولادة وطبيب النساء ويدخلن بسهولة في تحالفات ضد أزواجهن.

لهذا كانا يحرصان كل الحرص على الاحتفاظ بصداقتهما بعيدا عن «المجتمع العسكري» كما كانا ينعتان بيوت الزوجية.

لكن أمينة، بحكم شبكتها التجسّسية النشيطة، كانت تعرف مدى ارتباط زوجها بـ«الكاتب الناجح» علاوة على سمعته التي على كل لسان.

وأنه «سبب المصائب» كما كانت تردد الحاجة مريم يوم كان عقلها قادرا على التميز.

الشيء الذي جعل علاقتها به متوترة تحكمها المنافسة على حب عمر. فقد كان الغريم الذي لا تملك أن تبعده عن حياة زوجها، الذي يعتبره بمثابة الأخ الذي لم يرزق به.

لم يتقابلا بعد الحادث الأليم، فكل منهما يتحاشى لقاء الآخر لأسباب يمكن فهمها بسهولة. كان الأستاذ إدريس ينتظر أن تخلو غرفة عمر إلا منه ليزوره. وعندما علم من الممرضات أن زوجته تأتي ليلا بعد انتهاء مواعيد الزيارة

لتنفرد به، وتحدثه طويلا، اختار لنفسه مواعيد أخرى ريثما تأخذ أمينة مسافة مع الحدث ويهدأ غضبها. فلم يكن بعد على استعداد للأجوبة عن أسئلة بدت له مشروعة ولا مفرَّ منها.

لكن إلى متى يظل يهرب من موقف سيتعرض له لا محالة؟

لذا قرر الليلة بعد أن علم بسفر ابناء عمر أن يحضر للقاء أمينة.

تقدم نحو أمينة مصافحا، وهو يحاول قدر الإمكان أن يبدو هادئا:

- مساء الخير، كيف حال عمر الآن؟

أجابت دون أن تنهض من مقعدها، لتظهر انزعاجها من حضوره:

- إنه في يد الله؟

وقف في الجهة الأخرى من السرير، سائلا:

- وماذا يقول الأطباء اليوم؟

- نفس ما قالوه في اليوم الأول.. لا يعلمون إن كان سيعود إلينا يوما.

أحس الأستاذ إدريس بوقع كلمة «إلينا» كلمسة حنان.

رد:

- لا بد أن يعود فحبه للحياة كفيل بخلق معجزة.
- أنت أدرى بهذا.

لمس في رد أمينة نبرة عتاب مكتوم.

لكن الوقت ليس للعتاب، ومن أبعده حضور قد يقربه غياب. هكذا فكر في نفسه وهو يقول في محاولة اعتذار:

- لم أجد الفرصة لأعبر لك عن أسفي لما حصل. إنها الأقدار أحيانا تعبث بنا.

لكن أمينة كانت أوجع من أن تدخل في مجاملات، ردت بنبرة لاذعة:

- ألست أنت من يدافع عن فكرة أن الإنسان من يصنع قدره بيده؟ إنه القدر الذي اختاره وفرضه علي.

انتبه إلى أنهما ينحدران نحو نقاش لا رغبة له به، نظر إلى عمر الممدد بينهما وكأنه يتفرج على مشهد من مسرحية درامية. تجاهل سؤالها وسأل بدوره لينبهها إلى أنهما ليسا لوحدهما:

- هل تعتقدين أنه يسمعنا؟
- لا أحد يعلم، لكن الكلام حوله ومعه يبدو إيجابيا على حد قول الطب.
- لا أظن الطب يتفق على أن أي نوع من الكلام إيجابي.
- منك نستفيد، ألست سيد الكلام؟

استشعر الأستاذ إدريس أن أمينة في حالة هجومية يجدر به عدم تصعيدها. فقال:

- أعتذر إن اقتحمت خلوتك بعمر، أستأذنك في الانصراف، سأزوره لاحقا.

لكنها نهضت واقفة، حاسمة، كمن تريد أن تظل الكلمة الأخيرة لها:

- لا، دعك أنت معه، لقد اختليت به ما يكفي. والوقت تأخر.

أمسكت بحقيبة يدها وخرجت مسرعة قبل أن يعقِّب هو بكلمة.

جلس مكانها مقابل عمر. أمسك بيده، وكانت أول مرة من بعد الحادث، يتوجه فيها بالكلام إليه وكان كلاما خافتا، بطيئا، متقطع الأنفاس:

«لا بد أن تقاوم يا صديقي..

عودتك إلينا بيدك.. لا تستسلم أرجوك.. أستحلفك بصداقتنا أن تقاوم..

لا تعاقب نفسك بالتخلي عنا.. إنني أحتاجك.. ولدي مفاجأة سوف تعجبك.. لي مشروع جديد.. جريء كما تحب.. فيه التورط الذي كنت تنصحني به.. ينتظر مباركتك.

إنه آخر ما سأكتب..

فأرجوك أن تعود..

لقد ورطتك معي.. لذا عليك أن تكون في مستوى تطلعاتنا..

أن تبرهن للجميع بأنك الناشر الذي.. يذهب بعيدا في الأدب.. كما في الحياة.

الأدب يحتاجك.. وأسرتك تحتاجك..

لا تعاقب نفسك على موت كوثر..

«ما نفع حياة بدون مخاطر».. أنت من يؤمن بهذا.. وأنت من علمني ذلك..

المخاطر جزء من الحياة.. فلا تعاقب نفسك لأنك اخترت الحياة برمتها.. بكل ما فيها..

عد إليها.. إنها لا تزال متشبثة بك وإلا لما نجوت من الحادث..

برهن للحياة أنك تستحق إيمانها بقوة إرادتك.. وحبها لك..

عد إليها..

إلى حبيبتك التي عشقتها أكثر من كل عشيقاتك.. ونصبتها ملكة على قلبك..

«الحياة أكبر من كل شيء» كنت تقول لي..

«إنها أكبر من الكتابة، فاجعل الكتابة ذريعة للحياة وليس العكس».. كثيرا ما حاولت إقناعي بهذا..

ها أنا قد اقتنعت.. وبصدد كتابة آخر منجز لنا تستمر الحياة بعده..

لكن لن تستمر بعدك صديقي..
فعد إلينا.. أرجوع عد..
عد إلي..»

أجهش الأستاذ إدريس بالبكاء، واضعا جبهته على يد عمر آملا أن يسمعه.. أن يقتنع.

26

مشدودا إلى الأريكة بكل ثقله، مستغرقا في ما عاشه..
وفي ما لم يعشه.. مفكرا بشيء من الكآبة والحنين..

عبر تفكيره شريط طويل من مشاعر متناقضة بدت كأنها تزحف من عالم آخر.. عالم قصي، يعرفه ولا يعرفه..
تزحف كمد لا شيء يوقفه.

ثمة أحداث نعيشها من دون أن نعيرها اهتماما وكأنها تعبر سطح أرواحنا من دون أن تصل العمق، وإذا بنا نستعيدها، بعد مضي سنوات، بقوة قاهرة كأنها كانت الحدث الأساسي الذي غير مجرى حياتنا.

أهي الذاكرة تغربل ما تريد ثم تعود لتستعيد ما لفظته؟

هكذا وجد الأستاذ إدريس نفسه يسترجع تفاصيل من طفولته كما نقلب ألبوما للصور عثرنا عليه صدفة أثناء ترتيبنا لدواخلنا.

«فتحت عينيّ على امرأتين بالبيت كلتيهما أمّا لي.

أمي التي ولدتني «للا فضيلة» و«دادة الغالية» التي ربّتني أنا وإخوتي الأربعة، وكنت أصغرهم.

دادة الغالية تقرب لأمي، فهي ابنة خالتها التي أتت بها من البادية لتدرس ولتساعدها في شؤون البيت. لم تفلح الغالية في الدراسة ولم تتزوج وبقيت تعيش معنا كأم ثانية. تحب أن تردد من غير مناسبة أن لالة فضيلة تلد وهي تربي ومن ربى أفضل ممن أنجب.

كان والدي يتنقل كثيرا بحكم عمله كضابط في الجيش. وحتى لا يزعج أبناءه في دراستهم، ونزولا عند رغبة والدتي التي لا يمكنها العيش خارج مراكش الحمراء، كان ينتقل لوحده كلما أمر رئيسه بذلك. ويزورنا مرة في الأسبوع أو في الشهر على حسب المنطقة التي يشتغل بها وكذا أيام الأعياد.

والدي كان شبحا، ما إن نراه حتى يختفي من جديد. ابتعاده عن البيت جعله يأتي كضيف محترم، نتعامل معه عبر مسافة تفرضها بدلته وشخصيته الخشنة.

لكننا كنا فخورين به وبالهيبة التي تحيط به أمام أفراد العائلة الكبيرة والجيران.

وذات صيف مشؤوم، جاءنا نبأ وفاته في حادثة سير أثناء مزاولته لعمله، وأنا لم أتعد السابعة من عمري.

كان أول مأتم أحضره. الناس أتت من كل ناحية وصوب والضباط ببدلهم الرسمية اكتسحوا البيت ليرافقوه إلى مثواه الأخير.

في اليوم الثالث بعد وفاته، أقيمت وليمة عشاء كما جرت العادة. كنت تائها بين الناس. بعضهم يقبلني ويبكي، وبعضهم يعطيني نقودا كي أشتري الحلوى، والبعض الآخر يضمني إليه حد الاختناق.. خاصة النساء.

لم أكن قد استوعبت بعد معنى الموت. لكنني كنت حزينا إذ فهمت أنه لن يعود.

انتهت الوليمة. وغادر المدعوون. ونام كل من بالبيت نوما عميقا.

ظللت أنا صاحيا وقد داهمتني وحشة كبيرة، وإحساس بالخوف.

اتجهت وسط الظلام إلى غرفة والدتي أستجدي بعض الحنان.. لأجدها بين أحضان دادة الغالية في وضعية تفوق الحنان. كانت الواحدة تقبل الأخرى بشغف وقد تحررتا من ملابسهما.

أهو الحزن الذي يفسر الحاجة إلى الضم والتقبيل؟ أم أنه نوع من المواساة شبيه بتقبيل نساء العائلة لي بحرارة وشدة خانقة؟

كانتا منهمكتين في ما تفعلان لدرجة لم تلاحظا معها وجود أنفاس متقطعة بالغرفة.

لم أنبس ببنت شفة، تسمرت مع الحائط وقد انتابني دوار.

انسحبت وأنا أكتم حاجة ماسة للتقيؤ.

لم ينقذني تلك اللحظة عقلي الصغير لتفسير ذلك الفعل، الذي فهمت بالغريزة أنه شيء محظور.

سر احتفظت به طوال حياتي. لم أبح به لأحد ولا حتى لزوجتي هناء، مع أن المشهد لم يفارقني يوما واحدا بعدد سنوات عمري.

شعرت ساعتها بأنني كبرت فجأة، وفي ذروة الحزن والجدية تراءت لي عبثية الموت والحياة.

عدت إلى فراشي أرتعش وقد جفّ حلقي. استيقظت في الصباح وأنا أهذي من الحمى.

كان هذا الحدث أول زلزال في علاقتي بالنساء.

توترت علاقتي بأمي وبدادة الغالية. أحسست بتواطؤ أنا خارجه، أصبحت خارج الحنان والحب.

انقلبت طباعي بين ليلة وضحاها، أصبحت عنيفا لا

أسمع الكلام، أنفعل لأقل سبب، لا أقبل نصيحة، وأجتهد في جعلي محط عقاب من قبل الجميع كأنني ألوم نفسي على رؤية شيء محرم علي.

عزا الجميع تصرفي هذا لصدمتي بموت والدي.

صدِّقوني، كنت أحيانا أحسده على ذهابه قبل أن يصدم بمشهد كالذي كنت شاهدا عليه. وأحيانا ألومه على غيابه الذي جعل دادة الغالية تملأه. وأحيانا أخرى أتساءل هل فعلا لم يكن يعلم؟

شب عودي، وأنا على هذه الحال لا أطيق العيش بين أمي ودادة الغالية، ودخلت في عزلة وبحثت في الكتب عما يساعدني على فهم العلاقات الإنسانية.

ثم أصيبت أمي بورم في الدماغ جعلها تلازم الفراش، وتفقد تدريجيا قدراتها الجسدية والعقلية إلى أن أصبحت لا تبصر ولا تتكلم. اعتنت دادة الغالية بأمي عناية فائقة دون أن تفقد الأمل في شفائها رغم إجماع الأطباء على أن حالتها ميؤوس منها. إلى أن توقفت يوما عن الحياة.

كان حزن دادة الغالية على أمي من النوع الأسود الدفين، أعمق من أن يطفو على السطح وأغزر من أن يحتويه بشر.

بدأت صحتها تتدهور وفقدت شهيتها للحياة، وبعد

مرور أربعين يوما على وفاة المرحومة، وبعد عشاء الأربعينية الذي اجتهدت في إعداده دادة الغالية ودعت إليه مرتلي القرآن وكل العائلة. خلدنا جميعا إلى النوم لنجد في الصباح دادة الغالية وقد لحقت بوالدتي إلى مثواها الأخير.

كان الجميع يتكلم عن مدى تعلقها بأمي وعن علاقة الصداقة التي كانت تجمع بينهما.. «كانتا أكثر من أختين» يقول المعزون..

وحدي كنت أعلم نوعية الحب الذي كان يربط بينهما.

بعد أن صرت بحاجة إلى النساء، بدأ التمزق في علاقتي بهن.. علاقة مضطربة وغير مستقرة تملأها التناقضات.

كثيرا ما سمعت منهن بأنني غير عادي.

وكذلك كنت.

كنت في علاقتي بالمرأة أعيش ازدواجية كمن يعاني من انفصام في الشخصية. بداخلي رجلان. أحدهما عاشق من نار.. نار ولدها حرماني من العاطفة.. عاطفة رفضتها يوم أحسست بأنها مشتركة. فتفيض فجأة.. وأنتفض كفارس يطفئ نار الحرمان بماء القلب.

والرجل الثاني مراوغ لئيم يطمح إلى المخادعة، يتضور جوعا للنساء، ولا شيء يشبع شهيته إلا مؤقتاً. لكن يعصره

الشك في صفائهن ونقاء سريرتهن. فيستغلهن لمصلحته ويرمي بهن كعود ثقاب أُشعلَ وانتهى.

كنت في آن واحد المكتنز بكل شيء والخاوي من كل شيء.

لأنني في سن مبكرة شاهدت ما يحلم كثير من الرجال بمشاهدته - فمنظر امرأتين تمارسان الحب هو من أكثر المشاهد إثارة على ما يبدو- وعندما كان العديد من أصدقائي يحبون ممارسة الجنس مع امرأتين معا، كنت أنا أحس بالغثيان أمام ملامسة مازحة بين أنثيين.

على الرغم من كوني قد تجاوزت نظريا كل حكم أخلاقي على الممارسات الجنسية، وأدركت أنه عالم بلا حدود، واعتقدت بضرورة حرية الكائن في اختياراته، فمشهد الحب بين أمي ودادة الغالية يوم عزاء والدي، وأنا طفل، لن تمحوه نظريات علم النفس التي التهمتها ولا أزال.»

وضع الأستاذ إدريس القلم من يده وقد غمره نوع من الارتياح.

إنها المرة الأولى التي لا تحرك فيها ذكرى هذه الحادثة انفعال الغضب، وكأن مسافة عريقة تفصله عنها.

أحس بخفة من تخلص من ثقل أنهك كاهله.

انتقل بتفكيره إلى أمينة،

لقاؤه الأخير بها خلف لديه إحساسا بالتقصير. نعم، لقد كان مقصرا في حقها. أحس ثقل معاناتها، وقرر أن يزور عمر ليلا.. أن يحدثها، أن ينصت إلى عتابها بل كلماتها المليئة بالمرارة.

طبعا، لن يستطيع تغيير شيء مما حصل لكن ليكن على الأقل أذنا مواسية.

من المؤسف أنه بدل أن يجمعهما حب عمر.. فرَّقهما.

مع أنه كان دائما، في قرارة نفسه، يكن لها تقديرا كبيرا واحتراما. مقتنعا بأنها امرأة أصيلة، من طينة هناء. لكن أنانيته واستحواذه على عطف عمر، جعله يدخل معها في منافسة لا مبرر لها الآن.

شعر برغبة في التصالح مع العالم. في تحسين علاقته بأمينة.

إنها تعاني مثله من الوحدة.. بين زوج في غيبوبة وحماة غائبة عن الواقع وأطفال غائبين عن البيت.

كيف لم يفكر في كل هذا من قبل؟

طوى دفتره ونهض متوجها إلى المصحة.

27

«رحل صبري واستقر السؤال: وماذا بعد؟

كان من الممكن أن أكتفي بأسبوع عشت فيه ربما ما هو أعمق وأكثر كثافة من علاقاتك مجتمعة.

لكنه هو الذي لا يعترف بالمكان، لفرط ما تقاذفته الأمكنة، يقيم في الزمان.. زمن الانترنيت. الذي أصبح مكان وزمان لقاءاتنا.

وبعد أن كنت أنتظر عودتك كل ليلة أصبحت أتمنى أن تتأخر».

هكذا بدأت أمينة حصة بوحها لعمر الممدد أمامها، قبل أن تحس بقشعريرة، وتنهض لإقفال النافذة ثم تعود إلى جلستها لتواصل:

«لم تسألني يوما عن سبب اهتمامي المفاجئ بالتكنولوجيا واجتهادي في دروس الكمبيوتر، أنا التي أشمئز من كل ما هو تقني.

عالم غريب هو الانترنيت!

اكتشفت كيف أننا وسط الشبكة العنكبوتية، مع الملايين، ووحدنا. كأن هذه الملايين تزكي علاقتنا لأنها مثلنا.. عزلة تعانق عزلة تعانق عزلة.

شبكة ذكية تنسج خيوطها من عزلة الكائن.

أنا التي كنت أهزأ من كل من يستعمل «الماسنجر». أصبحت مدمنة عليه، منذ اكتشفت قدرته على إعطائنا حرية التحليق فوق الجغرافيا.

تكون حقيقيا وأنت تختفي وراء شاشة تربطك بالعالم لأنها تعزلك عنه.

فيطفو جوهرك خفيفا على سطح روحك..

ولأنه بإمكانك أن تكذب، أن تتقمص كل الشخصيات فأنت تتقمص نفسك.

تصبح حقيقيا، تحرر رغباتك وغرائزك، تصبح كلماتك دقيقة وذكية..

كأن خيوط العنكبوت تفك عقدك.

قضينا زهاء ثمانية أشهر نلتقي يوميا على «الماسنجر»، نعيد اكتشاف العالم واكتشاف أنفسنا، وهو يخطو كل مرة خطوة نحو إقناعي بالتخلي عن كل شيء والذهاب إليه.

يقول لي: بإمكاننا أن نفعل وأن نصبح ما نريد. نحن

من نرسم لأنفسنا حدودا . . يجب أن نتمرن على الدفع بأنفسنا كل مرة أبعد فأبعد.

يقول لي: شخص واحد بإمكانه الاهتمام بأفراحك وبسعادتك: إنه أنت. . إنه أنا.

يقول لي: أعطيتِ أسرتك كل شيء، لا تسمحي لأحد بأن يمتلك روحك.

يقول لي: تعالي إلى النرويج، غيري حياة لا تشبهك، أبناؤك أصبحوا كبارا لم يعودوا في حاجة إليك. لن تكوني أول امرأة ولا آخر امرأة تطلب الطلاق.

يقول لي: لم أفكر يوما في الارتباط بأحد، لكنك أصبحت ضرورية لحياتي ولن أتخلى عنك.

يقول لي: العالم أوسع من بيتك فاحتضنيه.

يقول لي: تعالي لننسج قصتنا بنبضنا ونعيشها رغم أنف المظاهر الزائفة ومجتمعات النفاق. تعالي نعرقل خطة التاريخ.

يقول لي: أكره التصرف كضحية، لسنا ضحايا، تعالي

نمسك بأقدارنا. لا يوجد صح ولا يوجد باطل نحن من نخلق الصح ونحن من نخلق الباطل. الصح حبيبتي أن نعيش أقرب ما نكون من جوهرنا. أن نختار الحياة التي نشتهي. ونقنع بقية الكون على أنها لا يمكن أن تعاش إلا هكذا.

يقول لي: تعالي إنني مشتاق حد الكتمان. تعبةٌ أنت أعلم ذلك، لكن التعب الحقيقي يسببه الفراغ.. تعالي لنمتلئ ببعضنا.

إلا أنه، هو أيضا، قد تعب من المسافات، وتعب من إقناعي بحرق السفن، وتعب من تعبي.

لهجته بعد أن كانت محفزة تنضح ثقة وأملا، أصبحت منكسرة، وقد تسربت إليها مرارة الحرمان.

فكتب لي آخر رسالة حفظتها عن ظهر قلب، يقول فيها:

«ألي أن أخاطبك أم أخاطب الحرمان؟

ألي أن أشتكي إليه أم أشكوه؟

ألي أن أنتظره أم أسابقه؟

ألي أن أرتشف الحرمان مثل من يقتصد في التلذذ بما احتفظ؟

ألي أن أثور عليه مثل مطيع طالت طاعته وطال مكوثه؟

ألي أن أظل مثل النحلة التي تغذت وها هي تمتص وتطيل التذاذها بما ذاقت؟
إلا أن هذا لا يكفي أبدا، هذا نوع من إطالة الصور، من عرض الفيلم ببطء، والتمعن في تفاصيله بعناية النحلة الصغيرة.. هذا لا يكفيني أبدا، وليست لي قناعة النحلة ولا صبرها.»

وجاءت اللحظة الحاسمة التي طلب مني فيها أن أختار بوضوح بينك وبينه.

بقدر ما يبدو الاختيار سهلا وبديهيا بين الجنة والنار، بقدر ما كان صعبا ومدمرا بالنسبة إلي.
كيف أرتاد الجنة والنار تسكنني؟

ماذا أفعل بتمزق في الكبد أنا التي خبرته منذ صباي وأقسمت يوم انفصل والداي عن بعضهما، وأنا في عز النزيف، ألا أكون سببا في نزيف أبنائي؟
أن لا أجعل منهم «أيتام الأحياء».
ماذا أفعل بذاكرة والدتك التي محتني وعليّ أن أصبح ذاكرتها الحية؟
ماذا أفعل بك جرحا أحمله كما تحمل مسيحية صليبها؟
ماذا أفعل بجبني أو بشهامتي وما نفع تسمية ما لا اسم له؟

رحل صبري نهائيا وقطع كل صلة بي. لأن العطاء له حدود كذلك.

الحب عندما يولد كبيرا لا يرضى بغير العطاء الكبير.
وقد كنت عاجزة عن إعطائه أكثر مما فضل مني بعدك.

رحل مقتنعا بأنني اخترتك لما تبقى من حياتي.

هل اخترت حقا؟ وهل نختار بين موت وموت؟

هكذا دخلت دوامة الانحدار نحو موت بطيء، بينما أنت تجدد الحياة مع كل علاقة جديدة.

وبعد أن قرّبني حضور صبري منك، عاد غيابه لينبت بذرة الحقد على من ألقى بي بين ذراعيه لينتزعني منهما.

أدركت لأي حد أدمن الضياع.. أدمنك.

مرت علي أيام سوداء كرهت فيها نفسي التي أضاعت فرصة العمر.. فرصة لن تتكرر.

كل امرأة تنشد الاستقرار، لكنها في عز الاستقرار تتطلع إلى التغيير إلى فرد جناحيها. وعندما تأتيها الفرصة بكل أسباب التحليق تكتشف أن أجنحتها أثقل من جبل. فتجثم على الأرض موهمة نفسها بأنها قد ضحت في سبيل إسعاد أسرتها وأنها بطلة.. كل ذلك كي لا يقتلها الإحساس بالجبن.

أهي التربية التي تلقيتها، لم تؤهلني لتغيير جذري من هذا النوع؟

أم أن ارتباطي بك أقوى وأمتن من ارتباطي بصبري؟

لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن الحادثة التي أودت بحياة عشيقتك وجعلتك مجبرا على الإنصات إلي، جعلتني أندم على ما ضاع مني من فرص السعادة مع صبري. لو كنت أعلم أنك ستستحيل جثة بنبض وأنا آلة للتفريغ، لما ترددت في الرحيل عنك.

لكن الحياة لا تكف عن مفاجأتنا بما لا يخطر على بال.

لا أخفيك أنني تمنيت لحظة لو استمرت علاقتي بصبري، هكذا، على نحو افتراضي، يملأ علي حياتي من دون مشاكل العلاقات الواقعية. لكن الحب طماع. طبع العاشق أن يسعى إلى أكثر فأكثر إلى أن يستنفد كل طاقاته.. نتمنى نظرة وحينما تحدث، نطمح إلى قبلة، وبعدها إلى ليلة في الأحضان، ثم إلى ارتباط أبدي.

هو أسمى أنواع الإدمان.. ما إن نبدأ بجرعة حتى يصبح من الضروري أن نضيف أخرى لنصل إلى نفس الإحساس العابر بالارتواء.»

تحركت يد عمر بطريقة لم تدع لأمينة أي شك في ذلك.

خرجت من الغرفة صارخة وهي تنادي على الممرضة.

وإذا بالأستاذ إدريس الذي جاء بنية لقائها، يسمع صراخها ويهرول في رعب في اتجاهها، سائلا:

- ماذا حصل لعمر؟ ماذا حصل لعمر؟

28

أمام نظرات تحمل مزيجا من القلق والرعب والفرح المكتوم. .

فتح عمر عينيه.

جالت نظراته في الغرفة قبل أن تستقر على صديقه الأستاذ إدريس الذي كان على يمينه، يكاد يغمى عليه وهو يحاول كبح سؤال:

هل يبصر حقا؟

غرقا في نظرات بعضهما زمنا بدا أطول من عمر صداقتهما.

لم يكن أحد منهما قادرا على الابتسام.

أحس الأستاذ إدريس بثقل في اللسان وهو يمسك بيد عمر، كما ليبعده كليا عن العالم الذي عاد منه.

حاول عمر أن يضغط على أنامل صديقه. .

داهمته كحة متقطعة وهو يحاول أن ينطق بشيء.

تقدمت الممرضة في صمت من يشهد حدثا عظيما.
رفعت رأسه قليلا مصلحة وضع المخدة. وخرجت مسرعة لتنادي على الطبيب الرئيسي.

أشاح عمر بنظرته إلى اليسار كما لو يبحث عن أحد بالغرفة.
استقرت نظرته على أمينة التي كانت تخنق صرخة بيديها.
تقدمت لتمسك بيده.
طالت نظراتهما لبعضهما كشريط بطيء.
نظرات تختزل كل الكلام.
قبل أن تنتابه حشرجة مكتومة ويغلق عينيه على دمعة.

صرخت، وهي منكبة على وجهه:
- عمر، عمر.. هل تسمعني؟
حينها، دخل الطبيب الرئيسي مهرولا ومعه طبيب آخر، وأمر كل من كان بالغرفة الانتظار خارجا.

داهمت أمينة نوبة من الارتعاش هزت كل جسدها وهي تحاول أن تكتم صراخا وتبكي. تقدم الأستاذ إدريس نحوها، ضمها إليه بقوة وحنان. وهو يردد:
«أمينة، أرجوك لا تبكي.. لقد عاد عمر لقد عاد إلينا،

فقط يحتاج كمولود جديد أن يستأنس بمحيطه.. لا تبكي.. أرجوك.. لا تقلقي.»

هدأت أمينة بين أحضانه، وهما جالسان على كرسي بالبهو، ورأسها على كتفه الذي بللته الدموع.

كم انتظرا؟

ربما دقيقتين، ربما ساعة، ربما دهرا.

أخيرا، ظهر الطبيب الرئيسي بملامح من خرج مهزوما من معركة.

اندفعت أمينة أمامه وقد تحررت من حضن الأستاذ إدريس في قفزة واحدة. بينما نهض هو وتراجع خطوات إلى الخلف.

سألت أمينة الطبيب بنظرة.. أجابها بإيماءة لا تترك مجالا للشك.

أطلقت العنان لصراخها ليصم آذان المصحة.

غادر عمر الحياة بعد عودة قصيرة..

أكانت محاولة أخيرة للعودة؟

أم عودة من أجل الوداع؟

أم تراه كان بحاجة لإذن الرحيل؟

ربما نحتاج أن يصرح لنا من نحبهم بالذهاب.

ربما في تحريرهم لنا مسامحة مضمرة على كل ما اقترفناه في حقهم.. ربما.. وربما..

أسئلة عالقة في غرف الإنعاش لم يجد الطب لها أجوبة بعد، تماما كسؤال: هل كان يسمع أثناء غيبوبته؟

انتبهت أمينة بعد أن هدّأ الطاقم الطبي من روعها إلى أن الأستاذ إدريس قد غادر المصحة.

غادر من دون كلمة..

غادر من دون صرخة.. من دون دمعة..

غادر من دون استفسار.

لم يحضر مراسم الدفن.. لم يقدم العزاء لأحد.. لم يتلق العزاء من أحد..

ولم يعرف أحد أين اختفى.

29

وضعت أمينة قبلة على جبين حماتها التي لم تعد تبرح غرفتها، وقد أصبحت في حالة شرود مستمر، كما لو كانت تعيش في عالم آخر.

وزعت المهام على العاملين ببيتها وركبت سيارتها لتصل مقر «منشورات مرايا» باكرا كربة أعمال تحترم شغلها.

ما إن جلست على المكتب حتى تقدمت السكرتيرة برزنامة المواعيد، لتسرد عليها برنامج الصباح:

- اجتماع مع مدير البنك في الساعة التاسعة، يليه بعد نصف ساعة الاجتماع مع مديري الأقسام لمنشورات مرايا. ثم في العاشرة ونصف موعد مع مدير معرض الكتاب. المحامي طلب تأجيل موعده لبعد الظهر. والغداء مع الآنسة صباح في الساعة الواحدة.

- طيب، في انتظار كل هذا أعدي لي قهوتي وهاتِ لي البريد.

- حسنا أستاذة أمينة، هناك كذلك بعض الأوراق الإدارية والفواتير تنتظر توقيعك.

- فلنبدأ بها إذن.

ما إن انتهت أمينة من التوقيعات حتى شرعت في النظر إلى ما جاء به البريد. هناك ظرف كبير كتب عليه «إلى الأستاذة أمينة البديع رئيسة منشورات مرايا» ليس عليه اسم الجهة المرسلة. فتحته وإذا بها مسودة. ودون أن تحاول معرفة من الكاتب نادت على السكرتيرة:

- سبق أن قلت لك بأن تبعثي بمسودات الكتب مباشرة إلى لجنة القراءة.

- أجل استاذة، لكن على الظرف كلمة «خاص جدا» بالأحمر.

لم تكن أمينة قد انتبهت لهذا التفصيل. سحبت المسودة من داخل الغلاف لتعرف من هو صاحبها وإذا به الأستاذ إدريس.

جمدت في حيرة.

لماذا الآن؟ بعد مضي ستة أشهر على وفاة عمر، وبعد أن يئست من الاتصال به.

بحثت عنه طويلا بعد اختفائه، شعرت بمعاناته وهو يضمها ويحاول مواساتها لحظة الانتظار اللامتناهية، وهما في المصحة ساعة احتضار زوجها.

كم آلمها منظره وهو يبدو متعبا وقد ظهر على ملامحه ثقل السنين. ولم تفهم لماذا كلما تقاطعت نظراتهما في ذاك الجو المفعم بالرعب والقلق، أحست بسكينة تعبر جسدها.

أين اختفى؟

كانت تعرف مدى حبه لعمر، الأمر الذي كان يزعجها في الماضي، لكن رحيل عمر جعلها تحن لكل من يذكِّرها به.

فتحت المسودة بأنامل يربكها الفضول، وشرعت في قراءة المقدمة التي كانت عبارة عن رسالة مفتوحة وجهها الكاتب إلى قراءه:

«إن كنتم من المعجبين بكاتب ناجح، وتحبون إبداعه، وتنتظرون بشغف إصداراته الجديدة، فلا تحاولوا التقرب منه ولا التعرف إليه شخصيا، لأن النتيجة الحتمية هي إصابتكم بالخيبة.

لماذا؟

لسبب بسيط جدا، هو أنكم ستصدمون بواقع بديهي، منعتكم الهالة التي وضعتموها على رأس الكاتب من إدراكه: هو كونه إنسانا فقط، إنسانا مثلكم.

أنتم معشر القراء من جعل منه شخصية استثنائية، تماما كما يستمد هو شخصياته الاستثنائية منكم.

فأنتم عندما تقرؤون ما كتبه عن الحب، على سبيل

المثال، وتتماهون معه وتعيشون القصة كما لو كانت قصتكم، تخلصون إلى الاقتناع بأن صاحب هذا الكلام الساحر لا يمكن إلا أن يكون إلها للعشق. مع أنه من الممكن جدا أن تكتشفوا إنسانا لا يكتب إلا ما ينقصه، إنسانا يكمل حياته البائسة بحيوات شخوص يبتكرها ويعيش عبرها.

سأل مرة أحد الصحافيين «بليز سندرارس» إن كان قد استقل القطار الذي كتب عنه في قصيدته. أجابه سندرارس:
«ما همك أنتَ ما دمتُ قد جعلتك تستقله».

تقرؤون كتابا يغيّر حياتكم وتحسون بأنكم مدينون لهذا الكاتب الذي جعلكم تستقلون قطار الحلم. ولا تشكّون حتى في أغوار أنفسكم المعتمة أنه هو المدين لكم.

تساءلوا معي للحظة، لو أنكم لم تكابدوا عناء قراءة ما كتبه، لو أنه لم يلاحظ، وهو يوقع لكم بتواضع مصطنع، بريق الإعجاب بعيونكم.. يملؤه زهوا ويفتح له فتحا جديدا.. كتابا جديدا. لو أن الصحف لم تكتب عنه، ولم تلتفت وسائل الإعلام إلى إنجازه، هل كان سيستمر في الكتابة؟

حاولوا أن تجيبوا عن هذا السؤال. وطبعا، لا تسألوه أبدا لمن يكتب؟ لأنه سيصرح لكم، بتعال معهود، بأنه يكتب أولا وأخيرا لنفسه، يكتب ليتخلص من ضغط داخلي، يكتب لأن الكتابة حياته الحقيقية.

حسنا، لنفرض جدلا أنه صادق مع نفسه ساعتها. لماذا إذاً ينشر كتبه ويحرص على ملاحقة توزيعها بإلحاح؟

لأن كتابا لم يُقرأ هو كتاب غير موجود.

ولأنه كما قال أحدهم ساعة صدق: «أكتب كي يحبني الآخرون».

دعوني أذهب بعيدا في الاستدلال: عندما تستمعون إلى أغنية معينة، فأنتم تتفاعلون معها حسب نفسيتكم ومزاجكم الآني. بمعنى أنها قد لا تحرككم مرة وقد تبكيكم مرة لاحقة. لا لأنها اكتسبت شجنا مع الوقت. بل لأنكم أصبحتم مؤهلين للبكاء حيث تعانون، ربما، من وعكة حب أو حنين.

كذلك الشأن بالنسبة للكتب. قد يدمركم كتاب لأنه وضع الأصبع على جرحكم لحظتها. وقد تعودون لقراءته بعد مضي سنوات، فلا تجدون ذلك الانفعال الذي أحدثه، مع أن الكتاب هو ذاته.

لأنكم أنتم من يتغير وأنتم من يقرر نجاح كتاب أم لا.. نجاح كاتب أم لا.

لهذا السبب، ولأسباب أخرى ستفهمونها لاحقا خلال سبركم لأغوار هذا الكتاب، أنصحكم بالابتعاد عن الكاتب وعدم محاولة التعرف عليه أو الدخول معه في علاقة عاطفية

يستمد منها ومنكم الطاقة والإلهام. . علاقة لا تغدون خلالها أكثر من ذريعة للكتابة.

قد لا يتعمد إيلامكم عن وعي، وقد يسقط بصدق في حب أحدكم - علما بأنه في حالة حب دائمة وإن كانت غير حقيقية- ومع ذلك، أفضل تحذيركم من علاقة قد تكلفكم الكثير يوم يسطر على نهاية القصة. . ليعجن آلامه وآلامكم ويصنع منها رغيفا لذيذا ليغذي صفحات آتية.

قد تتساءلون عن سبب هذه الاعترافات، الآن بالضبط، وما الذي يدفع كاتبا، مثلي، للبوح بأسرار فظيعة لا تخدم الكتّاب؟

حقيقة الأمر، أنني قررت اعتزال الكتابة.

أعلم أنني لست نجما سينمائيا ولا مطربا لأعتزل الفن. . فما سبق أن اعتزل أحدهم الكتابة كاختيار حر، إلا من اعتزلته الكتابة وتوقف مرغما.

لا أحد يعرف السبب الذي يجعل النبع ينضب لدى المبدع. قد يكون نوعا من الوصول إلى سن اليأس الأدبي. . تستنفد عدد البويضات التي منحتك إياها الطبيعة فيتوقف عنك الحيض، وتضحى عاجزا عن الإخصاب - ذاك أن الإبداع مرتبط بالجانب الأنثوي فينا -

لكنني مازلت قادرا على الخلق وعلى افتضاض بياض الورقة بنسغي الأسود، بل وأكثر من هذا، أنا في السن التي يصل الكاتب فيها إلى النضج الأدبي ويصبح يروض فيها القلم بمهارة محترف.

المشكلة، يا أعزائي، في القلم..

لمزيد من البوح، أقول إنني كنت دائما أكتب بقلمين، ولا تستقيم لي الكتابة إلا إذا استقام لدي القلمان، فالعلاقة بين القلمين وطيدة جدا حيث يعجز النسغ الأسود عن إخصاب الورقة إذا عجز النسغ الأبيض..
شاء القدر الساخر أن أصاب بسرطان البروستات، وأخضع لعملية جراحية
أودت بروح القلم الذاتي وبالنسغ الأبيض.
لم يبق لي إذن سوى قلم واحد أشهر انتصابه في وجه العالم..
سأخط به هذا الكتاب الأخير، وبعد ذلك أتفرغ للقراءة مثلكم.»

شردت أمينة طويلا وقد رجَّتها هذه المقدمة، قبل أن تنادي على السكرتيرة وتعطيها أمرا بإلغاء كل المواعيد وعدم إزعاجها تحت أي عذر.

ثم عادت لتواصل قراءة المسودة.

قرأتها من دون انقطاع، في نفس واحد، إلى أن بلغت السطور الأخيرة، وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب:

«.. عاد صديقي عمر،

لم أكن أشك في ذلك لحظة واحدة. كان حدسي يقينا بأن افتتانه بالحياة قادر على إعادته إلى الحياة.. إلي.

عاد بعد غيبوبة دامت خمسة أسابيع وكأنه استيقظ من نوم عميق.

فتح عينيه، نظر إلي مطولا وابتسم قبل أن تستقر نظرته على زوجته التي كانت تبكي من فرط سعادتها.

فرح الطاقم الطبي بما اعتبره معجزة.

لزمته بعض حصص من الترويض وبضعة أيام نقاهة قبل أن يعتكف على قراءة هذا الكتاب الذي بين أيديكم.. آخر هدية مني إليكم قرائي الأعزاء أتفرغ بعدها لعيش ما تبقى من عمري على صفحات الحياة الحقيقية.. مبدعا في القراءة مثلكم..

ففعل القراءة لا يحتاج إلى ملهمات.»

أصيبت أمينة بنوع من الذهول..

قاومته بإرادة فائقة، استرجعت صفاء ذهنها، ثم نادت على السكرتيرة. ناولتها المسودة قائلة بثقة المهنية:

- خذي هذا الكتاب إلى قسم الطباعة مباشرة، أريده جاهزا قبل معرض الكتاب.

ظلت ردحا من الزمن تفكر في النهاية التي خطها الأستاذ إدريس. . تماما كما حلم بها. . كما أراد لها أن تكون.
قالت في نفسها بقناعة ناشر حذق:

«ماذا يستفيد القراء لو كتب الكاتب واقعا يعرفونه».

تهيأ لها سماع عمر وهو يرد عليها:

«من يرغب في معرفة الحقيقة فليبتكرها».

فاتحة مرشيد

المُلهِمات

أنا صنيع كل النساء اللواتي عبرن حياتي..

بدءاً من التي منحتني الحياة.. إلى التي أيقظت الرجل بداخلي.. والتي فتحت لي باب الإبداع على مصراعيه.. والتي جعلت قلمي يتألّق.. والتي كانت ورقة مبسوطة تحت يدي..

فكل كتاب عندي مقرون بامرأة.. كل فرحة عندي مقرونة بامرأة.. وكل انكسار كذلك.

كثيرا ما كتب النقاد عن مساري الأدبي، كمن يكتب عن مسرحية معروضة على الخشبة، جاهلين ما يجري في الكواليس.

قررت الآن، بعد المشهد الأخير، أن أرفع الستارة الخلفية وأهديكم العرض الحقيقي.. عرض الكواليس المفعم بقلق الممثلين وتقلباتهم المزاجية.. بعلاقاتهم السرية وانفعالاتهم الحقيقية التي يوارونها خلف الماكياج والأقنعة قبل أن يرسموا ابتسامة تستحق منكم التصفيق...

فاتحة مرشيد، شاعرة وروائية مغربية، صدرت لها ست دواوين شعرية ترجمت إلى عدة لغات، وروايتين: "لحظات لا غير" و"مخالب المتعة".

أشرفت على إعداد وتقديم برنامج يهتم بالتربية الصحية، وآخر يهتم بالشعر، بالقناة الثانية المغربية لعدة سنوات. وهي تمارس مهنة طب الأطفال بمدينة الدار البيضاء.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
cca_casa_bey@yahoo.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-500-2
9 789953 685007